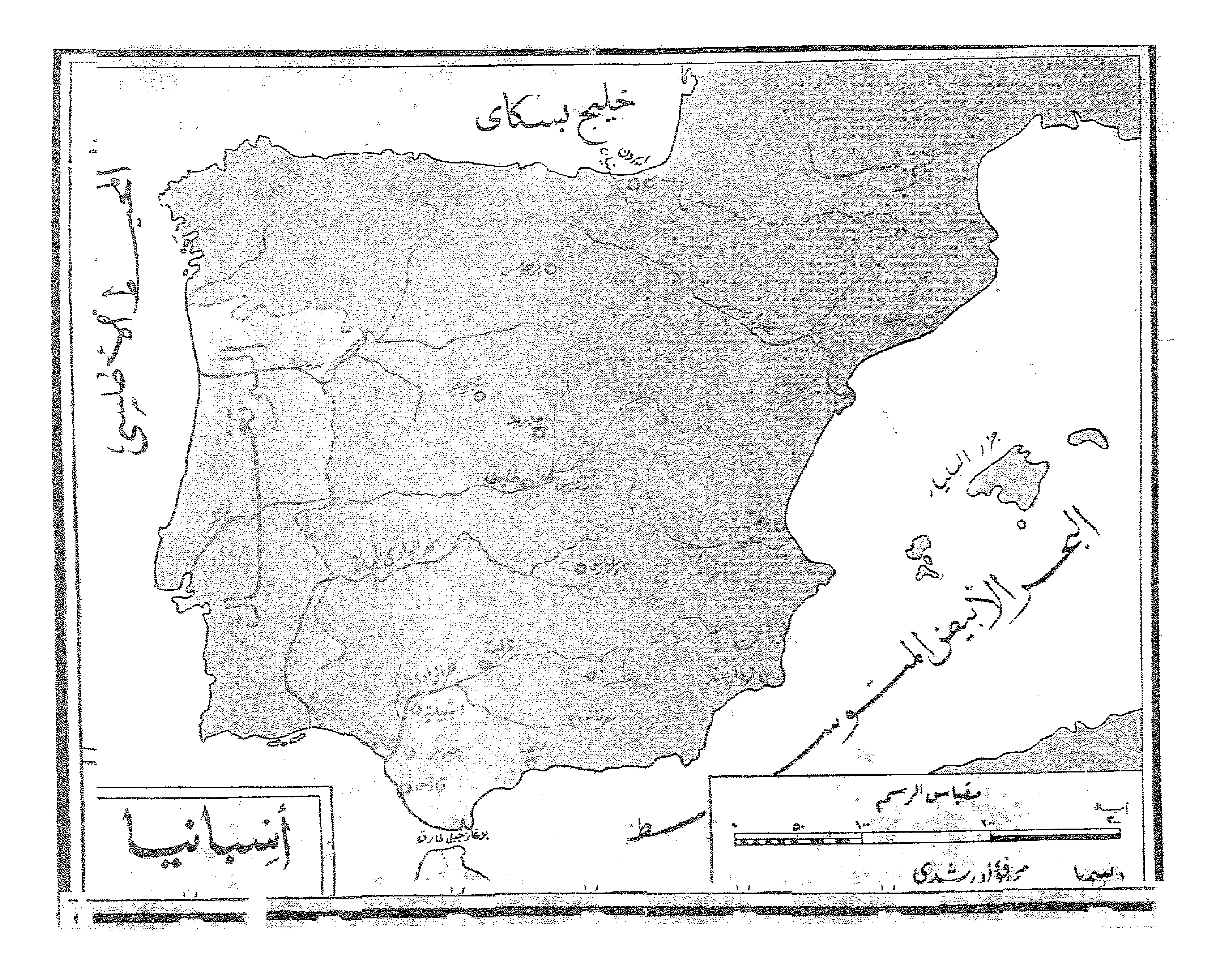
اسبانيا والأندلس

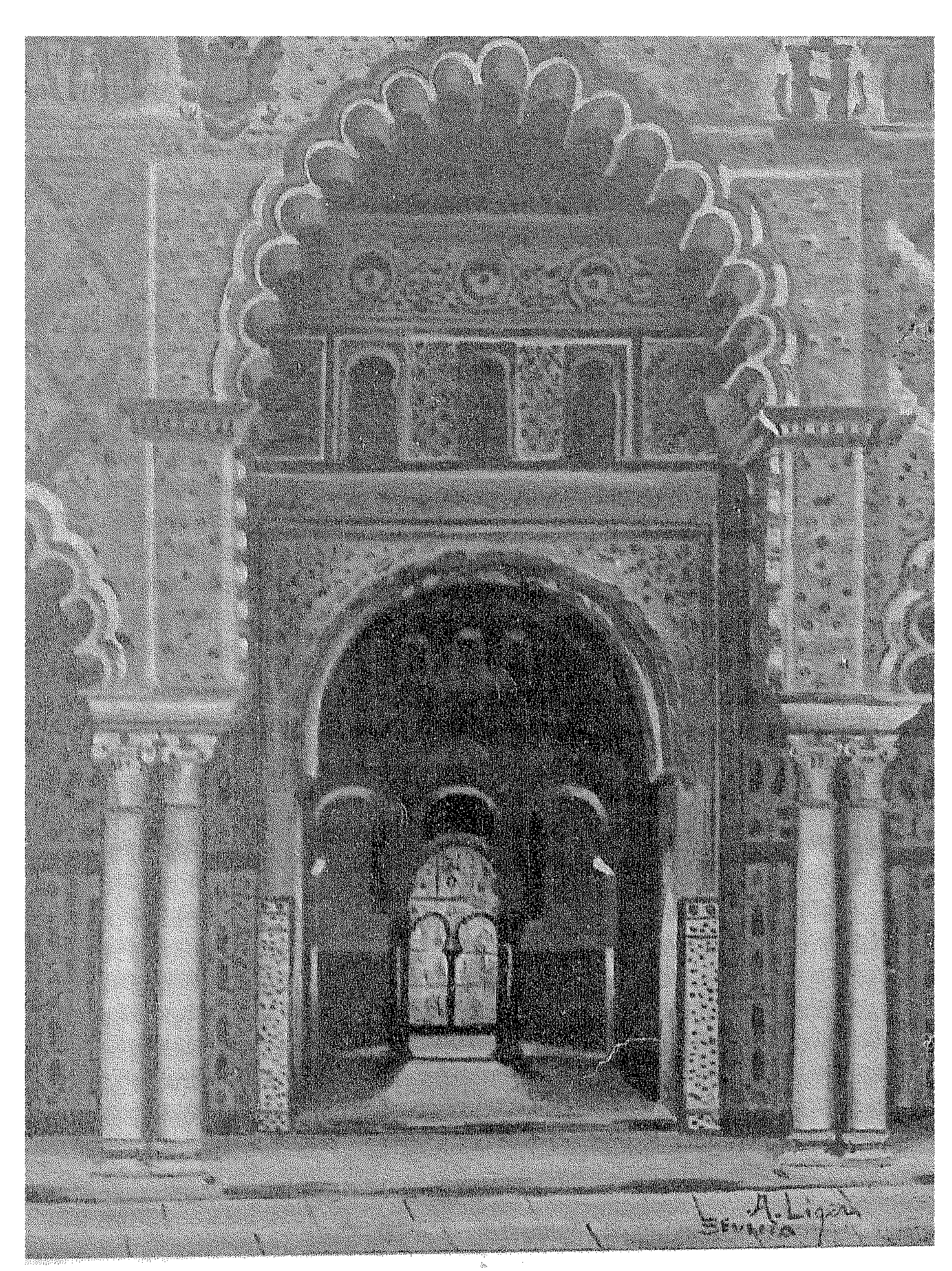
بقلم

علي إسلام باشا

حوش البرتقال بقصر أشبيليه



أسبانيا
خليج بسكاى
المحيط الأطلسي
فرنسا
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
مدريد
طليطلة
قرطبة
أشبيلية
غرناطة
قرطاجنة
مقياس الرسم
رسمها محمد فؤاد رشدي



قاعة السفراء بقصر أشبيليه

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، و به نستعين

مقدمة

سافرت الى الخارج لأول مرة وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى فزرت فرنسا وسويسرا وانجلترا ، ثم توالت أسفارى الى الخارج حتى جاوزت العشرين ، وطفت بأكثر بلاد أوربا مرات عدة ما عدا بلاد الشمال وأسبانيا لعدم معرفتى لغاتها وكنت قد عولت على قصر رحلاتى على البلاد التى أعرف لغتها لسهولة التفاهم ، ولكى لا أشعر بالغربة اذ أسافر غالبا بلا رفيق .

ولما كنت أعرف اللغتين الانجليزية والفرنسية ، وأفهم الألمانية بالقدر اللازم للتفاهم بيسر فيما يتعلق بمسائل السفر والتنقل ، كان من السهل على السفر الى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، كما زرت ايطاليا أكثر من مرة ، وقضيت فترات ممتعة فى مختلف ربوع أوربا متنقلا بين شواطىء البحار وأعالى الجبال والريف والحضر ، وزرت مختلف المصانع والمزارع والمتاحف والآثار .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فلم أبرح مصر الا الى البلاد العربية الشقيقة ، فزرت أثناء الحرب سوريا ولبنان

مرات ، ثم فلسطين والسودان . ولما انتهت الحرب ، وأظل السلام العالم ، واستقرت الأمور فى أوربا بعد اضطرابها ، عاودت رحلاتى الى الخارج بعد انقطاعى عن ذلك عشر سنين ، وسافرت صيف سنة ١٩٤٩ الى أوربا وانجلترا ، وجددت التعرف والاستمتاع بتلك البلاد الجميلة الراقية ، وعدت اليها أيضا صيف سنة ١٩٥٠ .

كثيرا ما فكرت فى زيارة أسبانيا والطواف بالأندلس ، والتعرف الى أهله ومعالمه ، وحفزنى على تنفيذ الفكرة ما قرأت عن تلك البلاد ، وقلت : ماذا لو قضيت بأسبانيا ، رغم عدم معرفتى اللغة ، شهرا ؟ وشجعنى على ذلك زياراتى للهند شتاء سنة ١٩٥٠ ، ولتركيا واليونان فى الخريف ، وما تركت تلك الزيارات فى نفسى من أثر طيب وذكريات جميلة ، رغم عدم معرفتى لغات تلك البلاد .

ان فصل الربيع هو أنسب الفصول لزيارة أسبانيا ، فليكن الربيع موعد الرحلة باذن الله — عزمت وتوكلت على الله — وغادرت القاهرة بالطائرة فى السادس والعشرين من مارس سنة ١٩٥١ قاصدا جنيف حيث أبدأ منها الرحلة الى أسبانيا . ورافقنى فى السفر ابنى عمر ، وكانت هذه أول رحلة له الى أوربا ، ولو أنه سافر قبل ذلك الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق والسودان .

قضينا بأسبانيا أربعة أسابيع كاملة ، وجبنا أرجاءها المختلفة ، خصوصا الأندلس ، الذى زرت الكثير من معالمه ، وأقمت أياما فى مختلف مدنه الهامة ، ولمست عظمة ما تركه

العرب به من آثار ، وشاهدت ما حبا الله به الأندلس من جمال وخصب واعتدال فى المناخ فى فصل الربيع ، فصل الزهور والورود والشمس الساطعة والجو المنعش الجميل ٠

لم أفكر فى تدوين مذكرات عن الرحلة ، ولكن خطر لى فى نهاية المطاف بأسبانيا وأوحى الى ما رأيت بها ، وخصوصا بالأندلس ، أن أكتب رسالة عن تلك البلاد الجميلة ٠

***

بدأت اليوم ، الاثنين ٣٠ من شهر ابريل سنة ١٩٥١ ، وهو آخر أيام الرحلة ، اذ أسافر غدا باذن الله بالطائرة من مدريد الى باريس ، بدأت كتابة رسالتى عن أسبانيا ، ولن تكون هذه الرسالة عن رحلتى الخاصة ، اذ ماذا يستطيع أن يرى السائح فى رحلة واحدة لبلاد واسعة كأسبانيا مهما حقق ودقق ؟ لذا ستشمل الرسالة ما شاهدت فى أسبانيا وبعض ما قرأت عن تلك البلاد الجميلة ، لتكون الرسالة أوفى وأعم نفعا ، وليكون فيها الغناء لمن أراد أن يلم ببعض المعلومات عن أسبانيا ٠

لن تكون الرســالة اذن عن رحلتى الى أسبانيا ، حتى لا يتقيد القارىء ببرنامج خاص ، فلا أذكر من أين بدأت ، وأين قضينا يوم كذا ، وماذا رأينا هنا وهناك ، بل سأسرد ما تجمع عندى من معلومات هى خلاصة ما رأيت وما قرأت عن أسبانيا ، ليختار منها القارىء العزيز ما يحلو له ويميل اليه من بلاد ومعالم ، اذا ما عقد العزم على زيارة أسبانيا ٠

تمهيـــد

ليس هنا مجال التكلم باسهاب عن تاريخ أسبانيا القديم ، وتاريخ العرب بها ، فان للعرب تاريخا مجيدا حافلا مدونا فى الكتب وخالدا على الدهر ، فقد فتح العرب أسبانيا سنة ٧١١ ميلادية ، وبقوا بها نحو الثمانمائة السنة ، الى أن أخرجوا منها بقسوة ووحشية سنة ١٤٩٢ ، وكانت غرناطة آخر ما احتفظ به العرب من بلاد الأندلس ، وسيأتى ذكر العرب وآثارهم فى سياق الحديث عن الأندلس وغيره من البلاد التى استوطنوها بأسبانيا ، ونشروا بها العلوم والمدنية التى لم يكن للأسبان عهد بها قبل دخول العرب بلادهم •

كان لنضال الأسبان عن بلادهم ودينهم ثمانية قرون طوال أثر واضح فى خلقهم ، فهم ، ولا مراء ، أكثر أهل أوروبا تمسكا بالدين المسيحى ، وبلادهم مكتظة بالكنائس والمعابد ، وأعيادهم الدينية والوطنية كثيرة يحتفلون بها احتفالات شائقة رائعة •

والشعب الأسبانى وديع مؤدب مجامل يميل الى مباهج الحياة ، وللفنون عنده من قديم الزمان مكانة رفيعة ،

والرقصات الوطنية كلها فن وبهجة ، تجمع بين الموسيقى والرقص والغناء ، وقد تطول السهرات الخاصة الى ساعة متأخرة جدا من الليل ، لذا فان مواعيد وجبات الطعام هناك ، حتى فى المحلات العامة التى يؤمها الأجانب ، كالمطاعم والفنادق ، لا تبدأ قبل الساعة الثانية من بعد الظهر للغداء والتاسعة مساء للعشاء .

والطعام الأسبانى جيد ، ويقدم بكميات وافرة ، وقد قدموا لنا فى أحد المطاعم ستة عشر لونا من المشهيات ، وأعقب ذلك السمك ثم اللحم ثم الفاكهة . « والطبق » الأسبانى الوطنى هو (البايلا) وقوامه الأرز فى الطاجن أو الصينية ، ومعه الكثير من مختلف أنواع السمك واللحم والدجاج .

وأسبانيا واسعة الرقعة ، بها من المدن العظيمة ما يضارع بل قد يفوق بعض عواصم دول أوربا من حيث اتساع الشوارع ونظافتها وحسن انارتها وتوافر وسائل المواصلات بها من ترام ومترو وسيارات أجرة عادية وسيارات عمومية وغير ذلك .

وبأسبانيا من الفنادق مايضارع أفخم فنادق أوروبا ، بل لعل فندق ألفونس الثالث عشر فى أشبيلية يفوق فى فخامته وزخرفته أى فندق فى أوروبا ، كما أن فندقى ريتز وبالاس بمدريد فى مستوى أرقى فنادق العالم ، ورغم ذلك فان كلف المعيشة بأسبانيا رخيصة تكاد لاتبلغ نصف نفقاتها فى فرنسا

التى يؤمها الكثيرون من المصريين سنويا ، وللحكومة فنادق صغيرة عديدة تابعة لمصلحة السياحة الأسبانية تقيمها على جوانب الطرق تسهيلا للمسافرين بالسيارات ، ولا يسمح للسائح أن يقيم بها أكثر من ليلة واحدة الا عند الضرورة اذا ما تعطلت السيارة مثلا ، وتطلب اصلاحها بعض الوقت ، وهذه الاستراحات آية فى النظافة وحسن الادارة ومعتدلة الأجور •

وبمناسبة ذكر الطرق أقول : انها شبكة واسعة تربط جميع البلاد بعضها ببعض ، وهى طرق متسعة مرصوفة رصفا جيدا يجعل من السياحة متعة ، خصوصا أن روادها يعرفون كيف يقودون سياراتهم الخاصة ، أو سيارات السياحة الكبيرة وسيارات النقل بحذر ورشاقة ، وتكاد لا تسمع أبواق السيارات داخل المدن أو بالطرق العامة •

أما السكة الحديد فهى الشىء الوحيد الذى لا يتناسب مع تقدم أسبانيا وعظمة مدنها وطرقها لأن أكثر الخطوط الحديدية مفرد والقطر بطيئة ، والسريعة منها لا تسافر الا أياما معلومة أسبوعيا ، ومع ذلك فهى سريعة نسبيا ، ورغم ذلك فانها مزدحمة كما علمت ، اذ أننى لم أجربها لعدم ملاءمة مواعيد السفر لى ولصعوبة الحصول على أماكن محجوزة أو سرر للنوم •

لذا اخترت السفر بالطائرة وبالسيارة فأمكن بالأولى

الانتقال من بلد الى آخر بسرعة ويسر ، وبالثانية مشاهدة البلاد عن كثب والاستمتاع بأجمل المناظر وأحلاها .

وعملة أسبانيا هى البزته ويصرف البنك للسائح ١١٠ بزته لكل جنيه مصرى اذا كان يحمل جواب اعتماد ، كما أن المصارف تغير أى عملة أجنبية من الورق الى العملة الأسبانية حسب سعر القطع يوميا ، والسعر الرسمى لا يتغير كثيرا ، ومن مصلحة السائح أن يحمل خطاب اعتماد ، أو أن يحصل على ما يلزمه من عملة أسبانية وهو فى سويسرا أو فرنسا .

وللسائح أن يحمل معه عند دخوله أى مبلغ من العملات الأجنبية،ومبلغ لا يتجاوز عشرة آلاف بزته أسبانية على أن يعلن ذلك ويدونه على استمارة خاصة تقدم له عند وصوله ، ولا يجوز للسائح أن يخرج ومعه من العملات ما يزيد على ما أعلنه عند دخوله ، ويصرح لكل زائر أن يشترى ويصدر أو يحمل معه بضاعة وهدايا لا يتجاوز ثمنها ٢٥٠٠٠ بزته .

ولما كانت هذه النظم الخاصة بالنقد عرضة للتعديل ، فيحسن أن يتأكد المسافر من ذلك عند أخذه تأشيرة الدخول الى أسبانيا من احدى قنصلياتها حتى لا يرتكب مخالفة للنظم عن غير قصد .

ومن المهم جدا لفت نظر القارىء الى ضرورة حجز الأماكن اللازمة لتنقلاته داخل أسبانيا سواء بالطائرة أو

بالقطار ، وحجز الفنادق أيضا مقدما ، والتأكد من ذلك قبل السفر ، لازدحام البلاد وتعذر وجود ما يطلبه السائح فى وقت قصير ، خصوصا اذا قصد احدى البلاد فى وقت أعيادها • ومن الطريف أن القوم يحجزون حجراتهم فى فنادق اشبيلية لحضور أعيادها شهورا قبل موعد الأعياد التى تقع فى حوالى النصف الثانى من شهر ابريل ، وفى ذلك الوقت ترتفع الأسعار أيضا ويشتد الزحام •

لهذا يجدر بمن يريد زيارة أسبانيا أن يضع برنامج رحلته مقدما ، مستعينا بأحد مكاتب السياحة ، وهى كثيرة بمصر وبالخارج ، لكى يستطيع حجز ما يلزمه من وسائل الانتقال ، وكذا محلات الاقامة بالفنادق ، والحصول على ردود صريحة بالحجز •

لن أذكر فى رسالتى هذه طبعا جميع بلاد أسبانيا ومدنها ، بل سأقتصر على طائفة منها اخترتها لأهميتها التاريخية ، أو شهرتها الزراعية ، أو لقربها من تلك البلاد ووقوعها فى طريقها :

لا شك أن الأندلس هو أهم ما يتوق السائح المصرى لزيارته لما يربط العرب به من ذكريات لن تمحوها الأيام مهما طالت وتوالت ، ومن المدهش أن من بين سكان الأندلس المسيحيين من يفاخرون الى اليوم بأنهم من سلالة العرب ، بل ويحافظون على الكثير من التقاليد التى اندثر أكثرها وتلاشت فى مواطنها الأولى ، ومما يلفت نظر من يزور أسبانيا

لأول مرة أن نســاءها عموما ونساء الأندلس خصــوصا لا يكثرن من وضع الأصباغ على وجوههن ، بل منهن من لا تضع الأصباغ أصلا ، ويبدو على زيهن الحشمة وعــدم التبذل حتى فى المراقص الحديثة حيث يرقصون الرقصات الأوربية والأمريكية ، فان الاحتشام والاتزان رائد أغلبية الراقصين والراقصات .

الوصول إلى أسبانيا

لكل سائح ظروفه الخاصة وميوله ، فمن الناس من يفضل السفر بحرا من مصر الى أوربا ، وآخرون يفضلون الطيارة اختصارا للوقت ، فاذا ما اخترت الأولى أو الثانية وبلغت بسلامة الله أوروبا فانك ستجد حيث تكون وسائل الوصول الى أسبانيا اما بالسكة الحديد أو بالطائرة ، كما توجد بعض خطوط ملاحية بين موانىء أوروبا المختلفة وأسبانيا بل وبين الاسكندرية وبرشلونه فاختر لنفسك ما يحلو من هــذه الوسائل المختلفة ، على أن تحجز أماكن الســفر مقدما كما ذكرت لك من قبل .

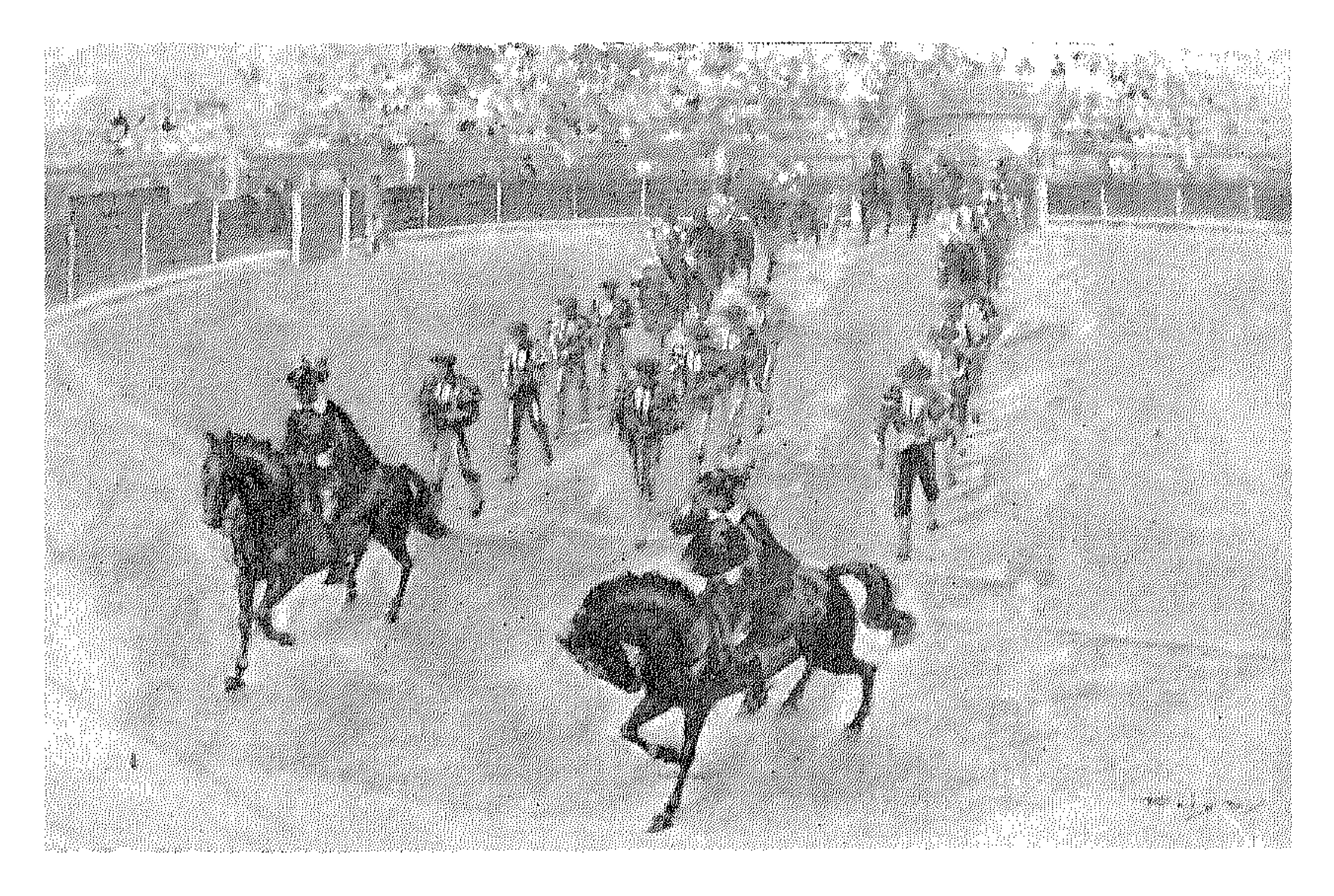
ليس للوصول الى أسبانيا من ناحية ما أفضلية على ناحية أخرى ، فسيان اذا ما قصدت أولا العاصمة مدريد أو أى بلد آخر على الشاطىء أو فى الداخــل ، والمهم أن تضع برنامج التنقلات بدقة وبعد دراسة وافية ، محددا الأماكن التى تنوى

زيارتها ، والمدة اللازمة لكل منها بما يتناسب وأهميتها، مراعيا طبعا الزمن الذى سوف تستغرقه رحلتك .

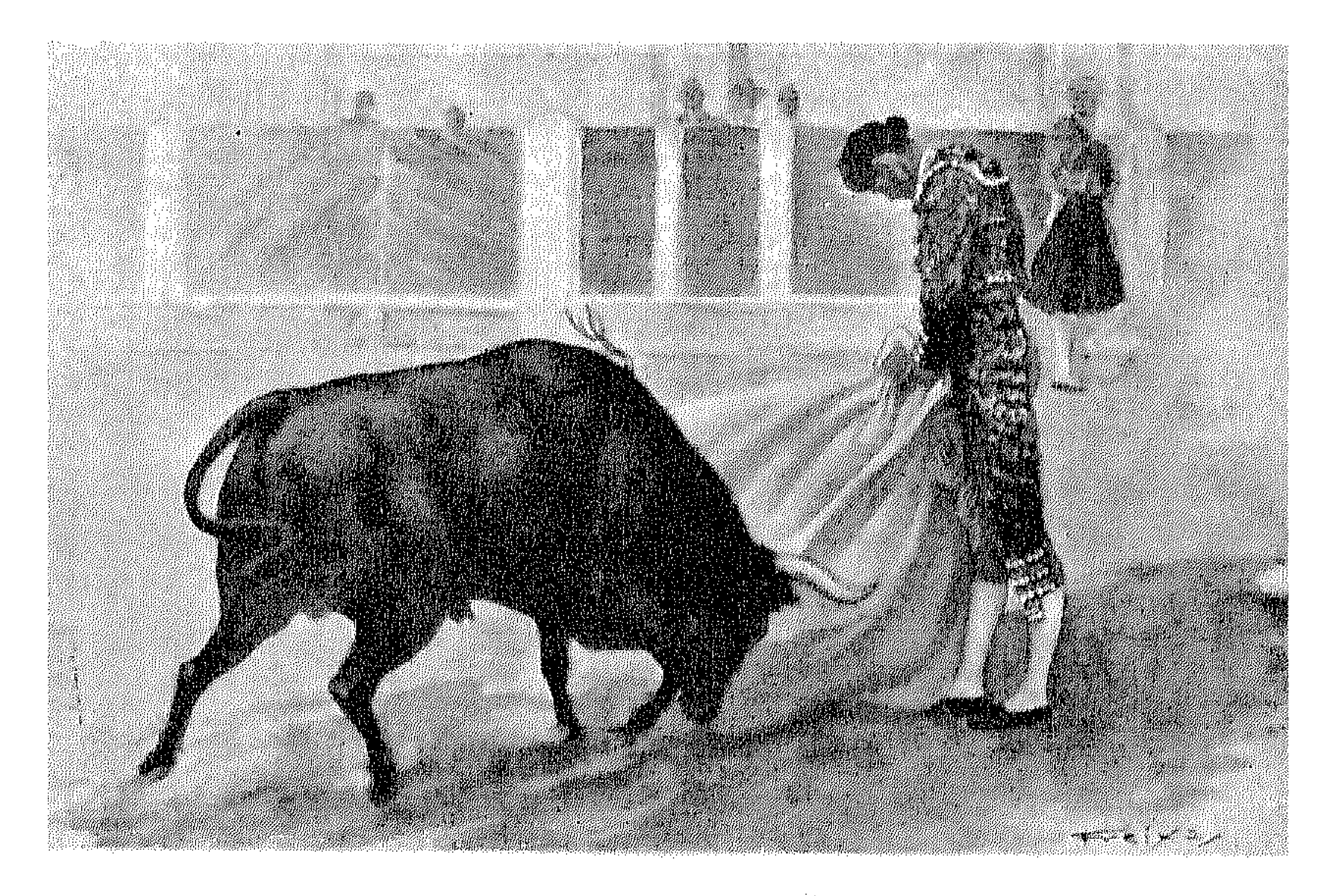
مصارعة الثيران

للاسبان شغف كبير بمصارعة الثيران ، وهى رياضتهم القومية من قديم الزمان ، ولأبطالها مكانة رفيعة عند قومهم ، وتكاد لا تخلو مدينة فى أسبانيا من بناء لمصارعة الثيران ، بل توجد هـذه الأبنية فى بعض القرى الصغيرة . ويبلغ عدد ميادين مصارعة الثيران فى أسبانيا نحو الثلاثمائة أصغرها يتسع لألف من النظارة ، بينما يتسع بعضها لنحو ٢٦ ألف متفرج كميدانى مدريد وبرشلونة . وميدان المصارعة عبارة عن دائرة كبيرة قطرها من ٣٠ — ٤٠ مترا ، وحوله المدرجات يفصلها عن الميدان سياج من الخشب متين بارتفاع نحو المترين ، وخلف الميدان الأماكن الخاصة بالثيران ، ولها فتحة على الميدان يدخل منها الثور عند بدء شوط المصارعة ، وفتحة أخرى يدخل منها المصارعون فرسانا وراجلين . وتكتظ الأماكن بالنظارة خصوصا فى الحفلات التى يكون بها بعض مشهورى المصارعين ، وعندها ترتفع أثمان التذاكر عن الثمن المعتاد ويتهافت القوم على شرائها .

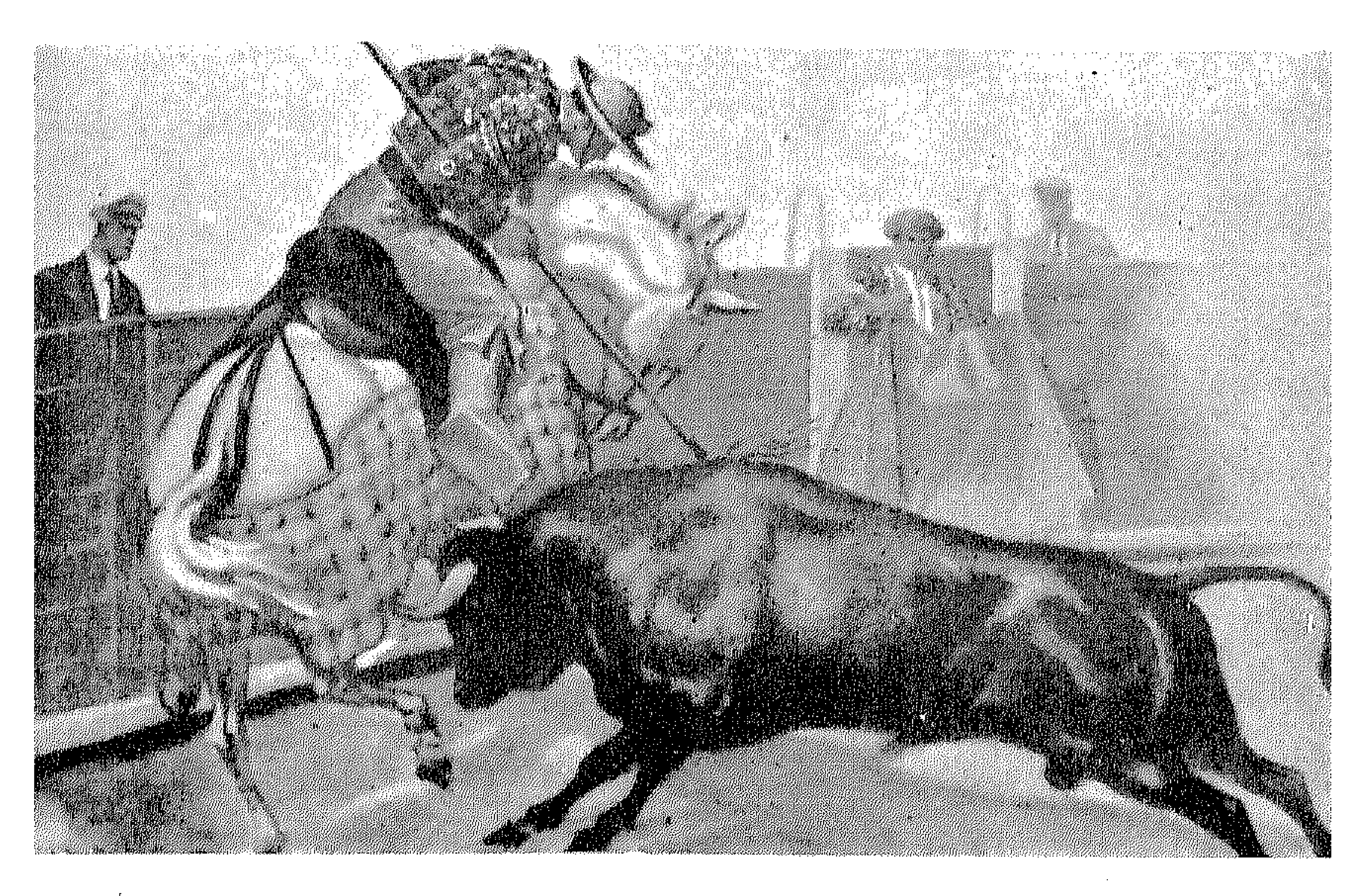
وثيران المصارعة من سلالة خاصة ، ويقوم بتربيتها فى مناطق معلومة من أسبانيا بعض العائلات التى اشتهرت بذلك من قديم وبعض الهواة ، ويبلغ ثمن الثور منها أضعاف ثمن



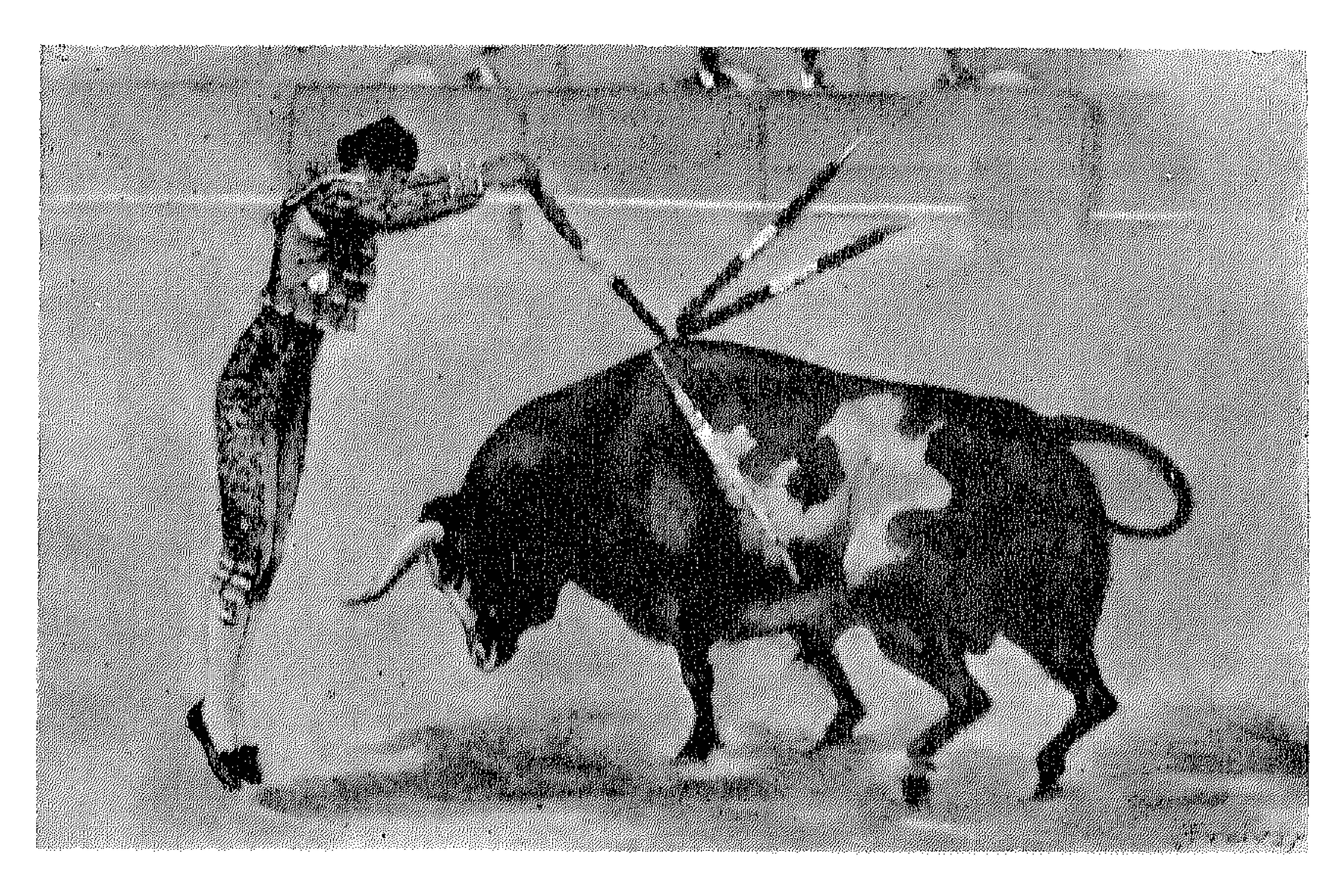
الاستعراض العام



المصارع يحاور الثور بعباءته



الفارس يطعن الثــور برمحه الطويل



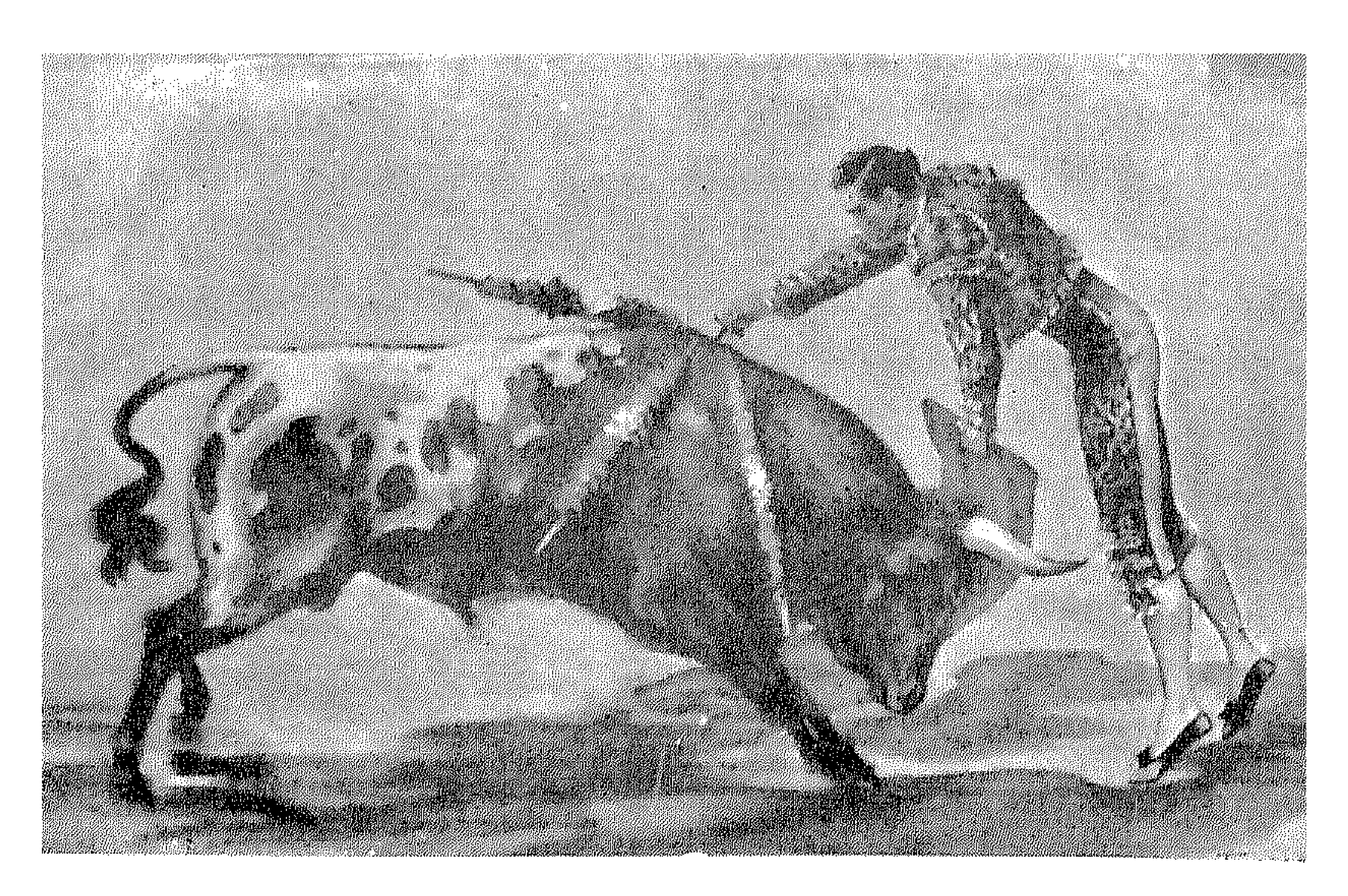
المصارع يرشق الســهام فى كتف الثور

الثيران العادية ويزيد الثمن كلما تقدم الثور فى العمر ، وسن ثور المصارعة عند دخوله الحلبة يتراوح بين الثانية والخامسة، والثور الذى يبلغ الخامسة يكون عادة فى غاية الشراسة والوحشية ، ولا يقوى على مصارعته غير عظماء وأبطال المصارعين •

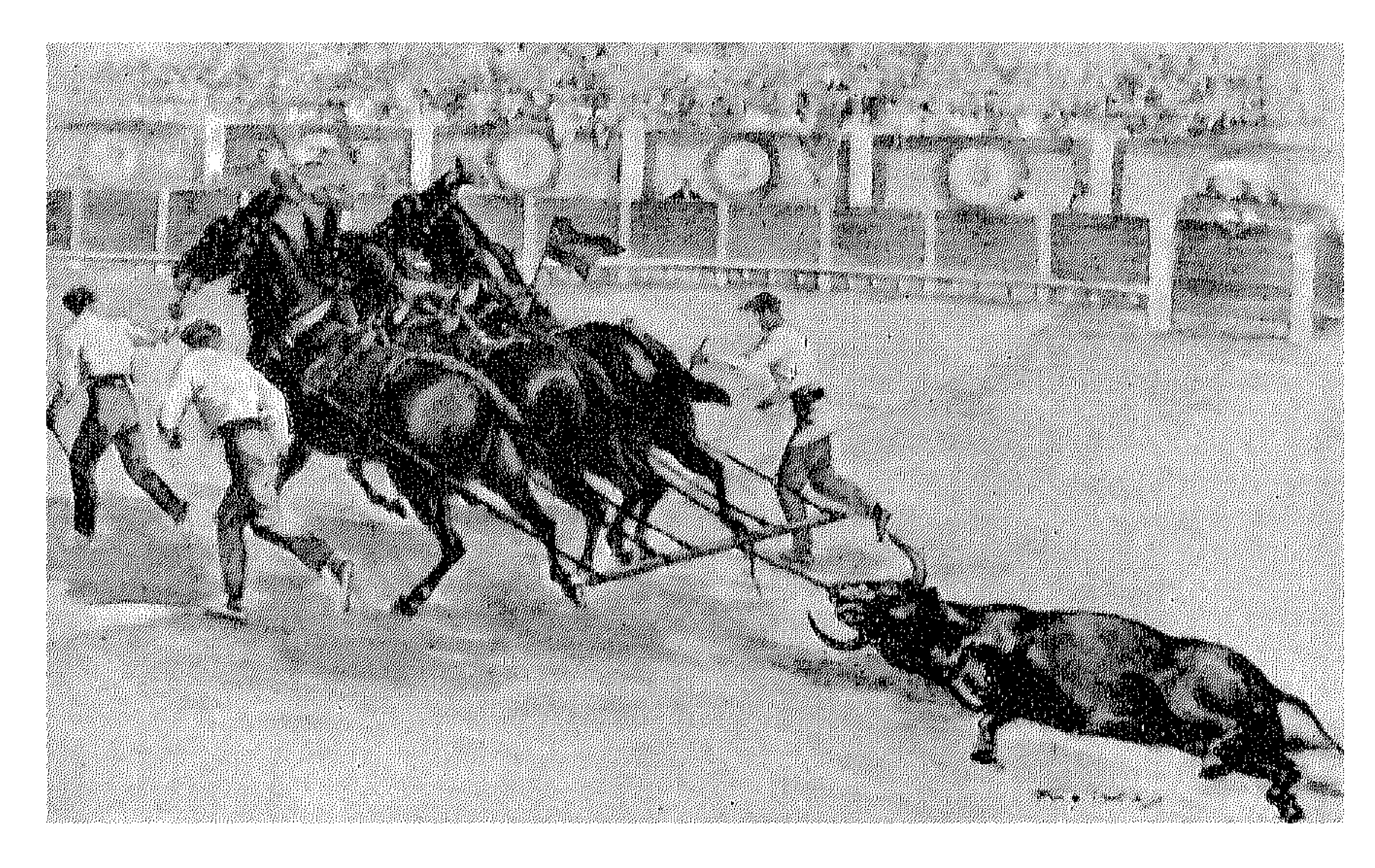
تبدأ حفلة المصارعة باستعراض شامل لجميع من يشترك فى المصارعة ، فيمر الفرسان على خيولهم وبأيديهم الرماح ؛ ثم الراجلون يحملون عباءاتهم الحمراء أو البنفسجية ، ثم حملة السهام ، ثم المصارع حاملا السيف • ويحيى الجمهور بحماسة هؤلاء جميعا ثم يتركون الميدان لحظة ليعود اليه أولا حملة الملايات الحمراء والفرسان ، ثم يفتح باب ليدخل منه الثور الى الميدان بحالة هيجان وثورة وشراسة عجيبة ، ويجتازه ركضا الى أن يقع نظره على أحد حملة العباءات الحمراء فيهجم عليه بقرنيه ليفترسه ، وسرعان ما يبسط الرجل عباءته أمام الثور ويتحول هو برشاقة وسرعة وخفة عن اتجاه الثور الذى ينطح العباءة بشدة ، ثم يعود الرجل أو أحد زملائه الآخرين فيستهوى الثور بعباءته يبسطها أمامه ليهجم عليها ؛ وهكذا يتبادل هؤلاء الرجال محاورة الثور ، ثم يأتى دور الفارس فيتقدم الى الميدان على فرسه وقد وضع عليه تحت السرج لبادة كبيرة سميكة متدلية الى ما يقرب من الأرض لتحمى بطن الفرس من هجمات الثور ، ويأخذ أحد حملة الملايات فى جذب الثور بملايته الى حيث يوجد الفارس ؛ ثم يترك الثور والفارس وجها لوجه ، فيبادر الثور الى الهجوم

على الفرس ويبادر الفارس بدفع الثور برمحه الطويل المدبب فيغرسه بين كتفي الثور بقوة وشدة ، فيرتد الثور الى الوراء، ولكن أحيانا ما يفلح الثور في ادخال قرنيه تحت بطن الفرس فيبقره فيخر صريعا ، وتخرج أحشاؤه ، وسرعان ما يأتي أحد المصارعين الى نجدة الفارس ، فيستهوى الثور بملايته الحمراء ليصرفه عن الفارس وفرسه ، ويهرع آخرون الى الفارس لنجدته ، وتنقل الفرس الى خارج الميـــدان ويؤتى بحصان آخر يمتطيه الفارس أو يأتي فارس آخر اذا كان الأول بحالة من الاعياء لا تسمح له بالاستمرار في المصارعة. ويحيى الجمهور المصارعين ، ويهلل لمن يظهر منهم براعة ومهارة ، كما يظهر استهجانه للمتخاذل الجبان ، ويصفقون للثور اذا أتى بحركة جريئة خصوصا اذا بقر بطن الفرس أو هدد أحد المصارعين وأجبره على الهرب .

يستمر هذا النضال فترة من الزمن بين حملة العباءات الحمراء ، والفرسان ، والثور ، ثم يأتي دور حملة السهام الذين يرشقون في كل مرة اثنين منها في كتف الثور ، فتظل ثابتة في لحمه تهتز كلما ركض ، فتزيده حماسة وشراسة . وعندما يتم رشق السهام الستة في كل مرة سهمان ، يأتي دور بطل المصارعة وحامل السيف فيتقدم الى الميدان راجلا بيده عباءته الحمراء وسيفه البتار المدبب ، ويأخذ في محاورة الثور بعباءته برشاقة وخفة وسرعة ، ويدور الثور حوله ينطح العباءة ، أما حاملها فيروغ بخفة عجيبة . ويستمر هذا النضال الى أن يتحين حامل السيف الفرصة فيطعن الثور بسيفه في



حامل السيف يطعن الثور بسيفه



اخراج الثور من الميــدان جثة هامدة

وريد العنق ، فاذا كانت الضربة محكمة خر الثور صريعا : وهنا يعلو الهتاف والتهليل ، واذا كانت الضربة غير قاضية يعاود السياف المحاولة ويقابله النظارة بالصفير واظهار علامات الاستهجان . وينتهى الشوط بقتل الثور حتما بعد نضال يدوم من ١٥ — ٢٠ دقيقة،وقد يبقر الثور أثناء الشوط بطن أكثر من فرس ، وعندما يخر الثور صريعا يسرع اليه الجزار فيجهز عليه بسكينة ثم يؤتى الى الميدان بخيول ثلاثة ضخمة الجسم ، مسرجة بسروج مزركشة لامعة ويشد الثور من قرونه بجرارات السروج،وتجره الخيل الى الداخل، وتمهد أرض الملعب سريعا ليبدأ الشوط التالى . وتبلغ الأشواط عادة ستة ، وفى الحفلات الهامة قد تبلغ الثمانية ، ويقوم كل حامل سيف بالمصارعة فى شوطين أو ثلاثة أشواط .

ويحدث أحيانا أن يتمكن الثور من غريمه فيقتله قبل أن يستطيع أعوانه انقاذه بجذب الثور الى ناحيتهم بملاياتهم الحمراء ، وحادثة قتل المصارع الشهير مانوليت حديثة العهد، فقد خر صريعا فى احدى حفلات المصارعة سنة ١٩٤٨ ، ودفن فى قرطبة ، وقبره الآن كعبة للزائرين من أجانب ووطنيين .

اسبانيا

تقع أسبانيا فى جنوب غربى أوروبا، وتكون هى والبرتغال شبه جزيرة ايبريا ، ويحيط بها البحر من جميع الجهات تقريبا، أللهم الا جزء فى شمالها حيث تتاخمها فرنسا ، وجزء من الغرب حيث تفصلها البرتغال عن المحيط الأطلنطى ، وأسبانيا هى الدولة الرابعة فى أوروبا من حيث اتساع الرقعة وعدد السكان ، وتبلغ مساحتها نحو نصف مليون كيلو متر مربع، يسكنها ٢٨ مليون نفس حسب التعداد الأخير • وأسبانيا كثيرة الجبال لا يفوقها فى كثرة جبالها بأوروبا غير سويسرا ، وتفصل جبالها الشامخة بعض مناطقها عن بعض ، مما يجعل المواصلات شاقة ، ويعزل سكان كل منطقة عن الأخرى • ويظهر أثر هذه العزلة فى عادات السكان وأخلاقهم ، اذ يعيش بعضهم فى أعالى الجبال والسهول القاحلة النائية عن العمران، بينما يقطن آخرون الوديان الخصبة الناضرة ، والمدن العامرة، فكان لطبيعة البلاد أثرها الواضح على الشعب ،وأورثت المناطق قاسية البرد وعرة المسالك سكانها شدة وحسن تبصر وقدرة على احتمال الشدائد والمحن التى اشتهر بها الأسبان•

وتختلف طبيعة البلاد اختلافا كبيرا ، فالمناطق الشمالية ممطرة شديدة البرد شتاء ، ويتساقط بها الثلج والمطر ، بينما المناطق الجنوبية قليلة المطر،ويكاد لا ينزل المطر ببعضها الا نادرا جدا •

وتختلف الأراضى الأسبانية أيضا اختلافا بينا فمنها الخصبة جيدة التربة ومنها المجدبة القحلاء •

وأسبانيا بلاد زراعية ، بها خمسة أنهر عظيمة عدا بعض القنوات والمجارى ، كما أن المياه الجوفية متوافرة وتغذى الزراعة عند الحاجة وقت جفاف بعض الأنهر • ويجود بأرض أسبانيا الكثير من أشجار الفاكهة والأشجار الخشبية والمزروعات الحقلية ، فمن أشجار الفاكهة التى تزرع بنجاح الأشجار الحمضية بأنواعها من برتقال وليمون ونارنج وما اليه ، وبها التين والزيتون والنخيل وأبو فروة والرمان والعنب والتفاح والكمثرى وغير ذلك • ومن الأشجار الخشبية البلوط والحور والكافور والسنوبر والسرو والسرسوع والخروب وغير ذلك وأهم حاصلاتها الزراعية القمح والشعير والفول والبنجر وقصب السكر والكتان والتيل والبصل والرز والترمس والدخان •

كما أن أسبانيا غنية بالمعادن ، ولو أن أكثرها مهمل لا يستغل استغلالا تاما ، أو لا يستغل أصلا ، ومن المعادن المتوافرة بأسبانيا الحديد والفحم والنحاس والزنك والقصدير والرصاص والزئبق والفوسفور •

لعبت أسبانيا دورا هاما فى التاريخ من أقدم العصور ، ووصلت الى أوج المجد أحقابا ، وتوالت عليها الأحداث من رفعة وسؤدد ، الى خضوع للفاتحين ، وقد سكنها من أكثر من عشرة آلاف سنة قوم يدل ما تركوه من نقوش ورسومات بديعة ومدهشة على حوائط كهوف جبال التاميرا altamira

على ما كانوا عليه من رقى ونبوغ فنى ، ولو أن ما نعرفه عن حقيقة هؤلاء القوم وتاريخهم يكاد لا يذكر ، فقد عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ ، ثم جاء من بعدهم ، أى من زمن بعيد جدا لا يمكن تحديده الآن بدقة ، الأيبريون من أفريقيا التى كانت وقتذاك متصلة بأوربا لا يفصلها عنها بحر •

وهناك أسطورة شائعة يرددها القوم فى ارلندا ، وكان سكانها الأقدمون من الايبيرين أيضا ، وتقول الأسطورة ان نشأتهم الأولى كانت بمصر •

جاء الفينيقيون الى أسبانيا فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد وأنشأوا مدينة قادس ، التى لا تزال قائمة الى اليوم ؛ ولعلها أقدم مدن أوروبا التى استمرت عامرة آلاف السنين ؛ ثم وفد على البلاد الأسبانية أهل جنوب أوروبا ، ومنهم ومن الايبريين يتكون الشعب الأسبانى الذى ورث عن أهل الشمال وأهل الجنوب ما اشتهر به من عزة واباء وصبر •

وتوالى الغزاة على أسبانيا من اليونان والرودسيين كما احتل القرطاجنيون بعض أراضى جنوب أسبانيا ، وفى سنة ٢٠٤ ق • م غزاها الرومان ، واستولوا عليها بعد نضال عنيف مرير ، فلما استقر لهم الأمر ، أخذوا يباشرون أعمال الاصلاح والتعمير ، فأنشأوا الطرق ومهدوها فى الجبال الشامخة والسهول الشاسعة ، وأوصلوا الماء الى المدن ، وشقوا الترع والقنوات ، وأقاموا الكثير من القناطر العظيمة والجسور التى لا يزال بعضها قائما الى اليوم •

كما بنوا مدينة اشبيلية ، وانتشرت المدنية الرومانية

بأسبانيا التى أخذت عن الرومان أيضا اللغة ومبادىء القانون ثم الديانة المسيحية التى كان لها أعظم أثر ، وكانت أقوى عامل فى تاريخ وتصرفات الأسبان ، وصارت أسبانيا أعظم معاقل الدولة الرومانية ، وأعظم قطر يمثل مدنيتها ، بل ان المدنية الرومانية بقيت وعمرت فى أسبانيا أكثر مما عاشت فى ايطاليا نفسها ، اذ ظلت أسبانيا رومانية الى أوائل القرن الخامس المسيحى عندما غزاها البربر ، وأمعنوا فى التخريب والتقتيل والظلم ، وقطعوا المواصلات التجارية بين البلاد والرومان ، مما عاد بأسبانيا الى ما كانت عليه قبل غزو الرومان لها .

وفى سنة ٤١٤ ميلادية غزاها القوط ، ولما استقر لهم الأمر أخذوا يصلحون ما أفسده الحكام السابقون ، فازدهرت البلاد فى بعض عهود ملوكهم ، وأجلى القوط الرومان نهائيا عن أسبانيا ، واستمرت الأمور بين ازدهار وعظمة ، وبين تدهور وانقسام وتنازع داخلى ، الى أن غزاها العرب سنة ٧١١ ميلادية .

وقد جاء العرب أول الأمر الى أسبانيا بدعوة من أحد الأمراء الأسبان المطالبين بالعرش ، وكان الجيش العربى بقيادة طارق بن زياد ، كما هو معروف ومشهور ، وتم فتح أسبانيا بعد ست سنوات ، ولو أن العرب لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها بأكملها ، اذ استطاع بعض الأمراء الأسبان الاعتصام بالجبال والجهات النائية فأهمل الفاتحون شأنهم ، وكان هؤلاء الأمراء هم نواة القوة الوطنية المناضلة التى

ظلت تناوىء العرب وتحاربهم مئات السنين الى أن أخرجتهم من أسبانيا سنة ١٤٩٢ .

كان العرب عند فتحهم لأسبانيا أرقى شعوب العالم وأكثرهم مدنية وحضارة ، وسرعان ما ظهر أثر مدنيتهم بالبلاد اذ أخذوا فى أعمال الاصلاح الشامل من اقامة الدور الشامخة والقصور الفخمة ، واقامة المعاقل والحصون ، وتخطيط المدن ، وشق الترع ، وانشاء الجسور والقناطر ، واعداد الأراضى للزراعة ، وأدخلوا الكثير من الأشجار والنبات من مصر والشام ، مما لم تكن معروفة وقتذاك فى أوروبا . وساعدت طبيعة البلاد وهمة العرب واصلاحاتهم الشاملة . على تضخم الثروات ، وزيادة الرفاهية ، وانتشار العلوم والفنون التى كان يهتم بها ملوك العرب وأمراؤهم ، فيقربون العلماء والفلاسفة والفنانين وغيرهم من أهل الرأى من أى جنس أو دين ، فازدهرت العلوم والفنون والمعارف والصناعة والتجارة والزراعة ، ووصل ملك العرب بأسبانيا الى قمة المجد والسؤدد والثروة والجاه والعمران ، كما يدل على ذلك ما بقى من آثار سيأتى ذكرها عند الكلام على البلاد المقامة بها . وهذا غير ما اندثر وخربه الأسبان بعد استيلائهم على البلاد وطردهم العرب منها سنة ١٤٩٢ .

وقد ترك جميع من استوطنوا أسبانيا من أقدم العصور آثارهم بها ، ولكن لا شك أنه كان للعرب أكبر وأعمق الأثر

فى الأمة الأسـبانية ، فقد اختلط الفاتحون منهم بالشعب اختلاطا كبيرا ، وتزوج العرب حتى أمراؤهم بالأسبانيات • واعتنق نصف الأسبان تقريبا الديانة الاسلامية ، وتغلغلت ثقافة العرب وعوائدهم وآدابهم فى الشعب الأسـبانى ، واختلط الدم العربى بالدم الأسبانى اختلاطا واضح الأثر ، وكانت اللغة العربية لغة النبلاء والنابهين من سكان أسبانيا جميعا ، كما أخذ السكان الأسبان المسلم منهم والمسيحى فى ارتداء الزى العربى واقتباس العادات وطرق الحيـاة ، والثقافة العربية ، حتى لقد نبغ كثيرون من الأسبان المسيحيين فى الأدب العربى والشعر والنثر •

عاش الأسبان مع العرب المتسامحين قرونا عدة ، واقتبسوا الكثير من عادات العرب وثقافتهم ، ولكن الشعب لم يخضع لحكم الفاتحين ، وظل يثور كلما سنحت الفرصة ، ويعمل على انتزاع أرضه ووطنه بغير كلل أو يأس أو ملل واستمر يناضل هكذا قرونا طويلة فتارة يظفر ببعض المناطق ويجلى عنها الفاتحين ، وتارة يكون نصيبه الخيبة والفشل ، الى أن تبين للأسبان ضرورة تعاونهم جميعا واتحاد كلمتهم ضد الغزاة الفاتحين فحالفهم التوفيق ، وأخذوا فى انتزاع منطقة بعد أخرى من يد العرب ، الى أن أجلوهم عن جميع أرجاء أسبانيا الا منطقـة غرناطة وكانت آخـر ما احتفظ به العرب • وفى سـنة ١٤٩٢ تم للأسـبان التغلب على صاحب غرناطة

وسلمها لهم أميرها أبو عبيد الله محمد ، بعد أن طال حصارها وانهار سكانها والمدافعون عنهـا فأعلنوا للأمير عجزهم عن الاستمرار فى القتال لنفاد الميرة والذخيرة .

وبسقوط غرناطة تم للأسبان الاستيلاء على أسبانيا جميعها ، فاضطهدوا العرب ، وساموهم العذاب والتقتيل والتعذيب ، وخلقوا محاكم التفتيش التى كانت تأخذ بمجرد الريبة والشك الى أن أجبروا جميع العرب واليهود على ترك البلاد أو اعتناق الدين المسيحى ، وقد عامل الأسبان من اعتنق المسيحية من المسلمين أسوأ معاملة ، وبطشوا بهم بشدة وقسوة لا يعرف التاريخ أبشع ولا أفظع منها ، وكان انقسام أمراء المسلمين وتفرق كلمتهم واستقلال كل واحد منهم بشطر من البلاد يحكمه السبب الأول الذى أطمع الأسبان فيهم ، ومكنهم منهم ، الى أن أجلوهم جميعا عن البلاد . وقد كان انقسام الأسبان ومنازعاتهم الداخلية قبل الفتح العربى لبلادهم العامل الأكبر فى تمكن العرب من فتح أسبانيا بغير عناء ولا مقـاومة ، وهكذا تنخر الفتنة فى كيان الشعوب فتهدمها وتذلها .

كان لنضال الأسبان هـذا الطويل ، الذى استغرق ثمانية قرون ، أثر شديد فى نفوسهم وعاداتهم ، وقد كان نضـالهم عن بلادهم يقترن بالدين لأن الفـاتحين يعتنقون الاسلام والمستعمرين من المسيحيين . فلما انتصر الأسبان على العرب عملوا على ابادتهم ، ومحو دينهم وآثارهم ، فهدموا الدور والقصور والمساجد ، وحرقوا المكتبات العامة ، وأقاموا

محاكم التفتيش لتحقيق هذه الأغراض ، وظل الدين المسيحى عند الأسبان رمزا للنصر وللوطن ، ولذا فهم ولا شك أكثر شعوب أوروبا تعصبا للمسيحية وتمسكا بتقاليدها٠ولا يوجد بأى قطر من أقطار العــالم ما يوجد بأسبانيا من الكنائس من حيث الكثرة والفخامة لضخامة ما قدمه الملوك والأمراء والشعب من هدايا للكنيسة تقربا الى الله وزلفى ٠

توطد اتحاد أســبانيا بزواج الملك فرديناند من الملكة ايزابلا ، وتصادف أن كشف كريستوف كولمب أمريكا فى نفس السنة التى انتصر فيها الأسبان على العرب وانتزعوا منهم غرناطة ، آخر معقل للعرب بأسبانيا ، وكان لايزابلا فضل كبير فى اكتشاف أمريكا لتشجيعها ومعاونتها كريستوف كولمب ماديا وأدبيا ، وقد وضعت تلك البلاد الشاسعة عقب كشفها تحت سيطرة الأسبان وحكمهم ، كما ضمت أسبانيا بعد ذلك الى ممتلكاتها جزائر الفلبين وبيرو والمكسيك ، واعتنق أهل تلك البلاد الواسعة الدين المسيحى ، وأخذوا عن أسبانيا اللغة والثقافة والتقاليد التى ظلت باقية بها الى اليوم ، وبعد أن تقلص النفوذ الأسبانى عنها من أجيال عديدة ٠

وصلت أسبانيا فى ذلك العهد الى أوج المجد والعظمة ، وكانت امبراطوريتها مترامية الأطراف عظيمة الشأن مهابة بين الأمم ٠

اشتبكت أسبانيا مرارا فى حروب طاحنة تارة مع جارتها

فرنسا ، وأخرى ضد الأتراك ، فقد تحالفت أسبانيا مع البابا وجمهورية البندقية ، وأرسلوا أسطولا ضخما مكونا من ٣٠٠ سفينة بها ثمانون ألف مقاتل ، بقيادة دون جوان ، لمحاربة الأتراك سنة ١٥٧١ ميلادية ، حيث انتصر أسطول الحلفاء فى موقعة لبانتو Lepanto

واستمرت أسبانيا فى نضال دائم مع انجلترا حتى سنة ١٥٨٨ ، حيث صادف الأرمادا الأسبانية حظ سيىء، فقد هبت عليها عاصفة هوجاء بالقرب من شاطىء الجزر البريطانية عندما كانت مشتبكة فى قتال مع أسطول من السفن البريطانية الخفيفة ، وكان نصيب الأسبان الهزيمة النكراء ، فعادوا الى بلادهم خائبين مدحورين .

انتهى عصر أسبانيا الذهبى بموت فيليب الثانى سنة ١٥٩٨ ، وأخذت تفقد ممتلكاتها واحدة بعد الأخرى ، فاستقلت البرتغال ، وأخذت ايطاليا وهولاندا تقتطع من أسبانيا منطقة بعد الأخرى من مناطق النفوذ الأسبانى ، كالفلاندر ونابولى وبعض المقاطعات الفرنسية التى كانت تحت سيطرة الأسبان . واستمرت الحروب الخارجية والفتن والثورات الداخلية زمنا طويلا أنهك أسبانيا وأفقدها الكثير من الأرواح والأموال ، وهد كيانها الاقتصادى ، فأصاب البلاد العقم والركود قرنين كاملين .

ولما ارتقى فرديناند السادس العرش ، كانت أسبانيا

قد فقدت جميع ممتلكاتها ما عدا بلاد الدنيا الجديدة ، فعمل الملك على تجنيب بلاده الاشتباك فى الحرب الانجليزية الفرنسية ، ولازم الحياد . ولما توفى سنة ١٧٤٦ خلفه على العرش أخوه شارل الثالث ، وكان ملكا عظيما وحاكما نبيلا ، عمل بجد ومثابرة على النهوض بالبلاد من الناحية الزراعية والصناعية ، وتمهيد الطرق واصلاح المرافق العامة ، واحياء الجامعات وتوجيهها نحو العلوم المدنية ، واقالتها من كبوتها واضمحلالها ، والى هذا الملك يرجع الفضل فى نهضة أسبانيا فى أواخر القرن الثامن عشر .

لم تسلم أسبانيا من حروب نابليون ، فقد اجتاحتها جيوشه ونصب نابليون أخاه چوزيف ملكا عليها فى سنة ١٨٠٨ ، ولكن حكمه لم يطل ، وسقط نابوليون ، وهزم وانتهى عهده ، وكان لتنصيب چوزيف بونابرت ملكا على أسبانيا أثر عميق فى نفوس الأسبان دفعهم الى نبذ الشقاق واتحاد كلمتهم،ولكن ملوكهم لم يستفيدوا من فرصة تحمس الشعب للاتحاد ، وساد البلاد فتن واختلافات سياسية داخلية، وتنافس على العرش بين مختلف الأمراء ، وكان يصحب هذا التنافس تطاحن سياسى بين المؤيدين للأمراء ، فمنهم المحافظون ، ومنهم الأحرار . وتضاربت الميول والآراء ، ومال فريق الى الجمهورية ، وآخر الى الملكية ، وظلت البلاد غير مستقرة الى أن تولى العرش الملك الفونس الثانى عشر

سنة ١٨٧٥ ؛ وتم فى عهده الكثير من الاصلاحات ، وأهمها تنظيم العلاقة بين الكنيسة والدولة ، حتى لا تطغى احدى السلطتين على الأخرى • وكان من حسن حظ أسبانيا أن تزوج الملك الفونس الثانى عشر بالأميرة النمساوية الموهوبة ماريا كريستينا،ولكن عاجل الموت الملك ألفونس الثانى عشر وكانت زوجته حاملا ، وقد وضعت فى سنة ١٨٨٦ مولودا ذكرا ولد ملكا باسم ألفونس الثالث عشر ، وتولت أمه الملكة ماريا كريستينا الوصاية على الملك الطفل ، فحكمت أسبانيا حكما عادلا موفقا،ونهضت البلاد نهضة شاملة،وشجعت حرية الرأى وحرية الصحافة ، وأدخلت نظام المحلفين الى المحاكم •

وفى عهدها نشبت الحرب الأمريكية الأسبانية وانتهت بخسارة أسبانيا لامبراطوريتها فيما وراء البحار •

بلغ الفونس الثالث عشر الرشد سنة ١٩٠٢ وتولى سلطته الدستورية ، وكان شابا متحمسا محبوبا من الشعب ، وقام الملك باصلاحات عدة ، من تحسين وانعاش المرافق الطبيعية للبلاد ، ومد السكك الحديدية ، وانشاء الطرق ، وبناء أسطول تجارى ، وتنمية التجارة الخارجية وغير ذلك من الاصلاحات ، بينما أخذت دول أوروبا تتسابق فى التسلح الذى أدى أخيرا الى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٨ •

تعددت الأحزاب السياسية فى أسبانيا الى درجة عاقت

نظام الحكم الدستورى الديموقراطى الصحيح ، وكان من بين الأحزاب حزب جمهورى أخذ ينمو ويقوى تدريجا ، واشتدت وكثرت الأزمات السياسية الداخلية ، وتعثرت أداة الحكم واضطربت الأحوال .

وفى سنة ١٩٢٣ ثار الجنرال بريمودى ريفيرا على الحكومة القائمة ، ولم يعمل الملك على مقاومته بل دعاه لتأليف الوزارة لاقتناع الملك باستحالة حكم البلاد بغير وزارة يؤيدها الجيش وسرعان ما ألف دى ريفيرا وزارة حكمت حكما دكتاتوريا غير مراعية الدستور وأحكامه ، وشرعت حكومة دى ريفيرا فى عمل اصلاحات عديدة فى مختلف النواحى ، وأعادت الأمور الى نصابها ، وعملت على تنمية موارد البلاد الطبيعية ، ومعاونة الصناعة والتجارة ، وموازنة الميزانية ، ولكنه انصرف عن الدعاية لنفسه أو لحكومته ، واذا به فى سنة ١٩٢٩ ولا نصير له من الشعب أو الجيش مما اضطره الى الاستقالة والرحيل عن البلاد الى فرنسا حيث توفى بها سنة ١٩٣٠ وأحيط موته بشائعات كثيرة واكتنفه الغموض .

أما الملك فكان فى مركز لا يحسد عليه ، واستعصى حل المشكلة التى خلفها دى ريفيرا ، وكانت الأفكار مضطربة ، والحالة السياسية غير مستقرة ، وقوى جانب الجمهوريين مما اضطر الملك ، تفاديا لثورة داخلية ، أن يدعو الى استفتاء عام كانت نتيجته تأييدا للجمهورية ، فغادر الملك البلاد سنة ١٩٣٠ من غير أن يتنازل عن العرش .

ولم يستقر الأمر للجمهورية ، بل كان قيامها سببا مباشرا لاثارة الحرب الداخلية التى استمرت من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ ، حيث انتصر الجنرال فرانكو زعيم القوات الوطنية ، وهزم الشيوعيين رغم ما كان يصلهم من معاونات كثيرة وأسلحة من روسيا السفيتية ، واستقر الأمر للوطنيين بزعامة فرانكو فى مارس سنة ١٩٣٩ • وعمل فرانكو على الابتعاد عن الحرب العالمية الثانية فلازم الحياد التام طوال سنوات الحرب من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ • وأسبانيا من الوجهة النظرية دولة ملكية أما عمليا فرئيس الدولة هو زعيمها الجنرال فرانكو •

المدن والبلاد الإسبانية

وعدت القارىء الكريم أن اختار له بعض مدن أسبانيا وأعرفه بها ، ورأيت أن أبدأ بمدريد العاصمة ، اذ تقع فى وسط أسبانيا ومنها يستطيع السائح أن يبدأ جولته سواء بالسكة الحديدية أو السيارة أو الطائرة •

عندما يصل السائح الى مطار مدريد تستقبله احدى مضيفات شركة الطيران الأسبانية بابتسامة حلوة ، وتقدم له كراسة أعدتها مصلحة السياحة الأسبانية عن مدريد وبعض ضواحيها ، بها طائفة من البيانات الدقيقة المفيدة باللغات الأسبانية والانجليزية والفرنسية • ورأيت أن خير ما أقدمه

لقرائى الأعزاء عن مدريد وبعض ضواحيها هو أن أنقل اليهم أهم ما جاء فى تلك الكراسة .

مدريد

يندهش من يزور عاصمة أسبانيا لأول مرة من أن مدريد بالرغم من أن عمرها يبلغ الآن ألف سنة ، وبالرغم من صعوبة تعميرها وتوفيرالوسائل الصحية لموقعها فوق تلال وجبال ومرتفعات ومنخفضات ، فان مظهر مدريد العام لا يضارعه غير القليل من كبريات عواصم الدول فى العـالم ، ولو أن مدريد تحتفظ فى بعض أحيائها بالطابع القديم .

تقع مدريد فى وسط أسبانيا على ارتفاع نحو ٦٥٠ مترا من سطح البحر ، وبالقرب من قمة جبل الجوادراما ، مما يجعل جوها جافا وصحيا ، أما برد الشتاء الذى يسببه سقوط الثلج على الجبال فأمده قصير ، والمطر قليل ، والسماء فى الغالب صحو لا سحاب بها ، والجو أثناء الشتاء يشبه جو الربيع ، أما ماء الشرب فجيد جدا .

يبلغ عدد سـكان مدريد الآن ١٫٨٠٠٫٠٠٠ نفس ، والأسبان مشهورون بكرم الضيافة والمرح وحسن الادراك والرغبة فى معاونة وتقديم أى مساعدة أو معلومات للغريب ، وسرعان ما يدرك الأسـبانى غرضك مهما كانت معرفتك للأسبانية محدودة ، يتساوى فى ذلك جميع الأسبان من مختلف الطبقات .

كانت مجريط اسم مدريد قديما ، وقد احتلتها سنة ٩٣٢ ميلادية جيوش راميرو الثانى ملك ليون،ولكن الملك غادرها سريعا عائدا الى بلاده ، وكان يحتلها فى سنة ١٠٤٦ المسلمون وبعض سكان أسبانيا الأقدمون عندما فتحها فرديناند الأول، فغادرها المسلمون ، ولكنهم عادوا اليها بعد سنة واحدة . وفى سنة ١٠٨٣ فتحها ألفونس السادس وهو فى طريقه الى طليطلة ، وحدث عند مهاجمة جيشه للمدينة أن تسلق أحد جنوده الأسوار بسرعة فائقة وخفة كأنه (قط) ، ومن هنا جاءت تسمية أهل مدريد وتكنيتهم (بالقط) وقد كان لأسرة هذا الجندى شأن يذكر بعد ذلك ومكانة مرموقة بين نبلاء أسبانيا ، وأطلق على أسرتهم اسم Cato — (القط) .

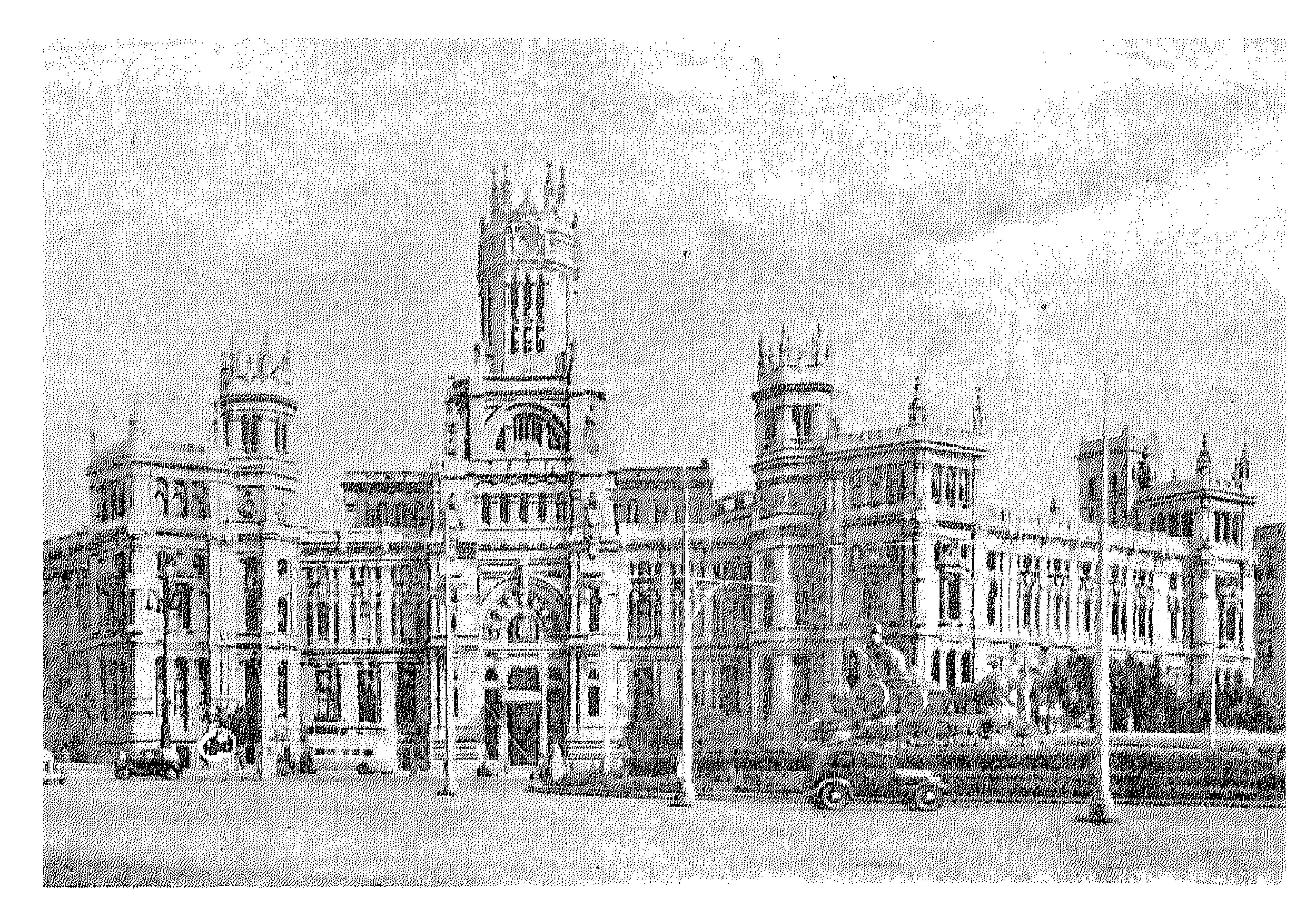
مجريط هو اسم الحصن الذى بناه العرب اذ ذاك فى (ميدان الشرق) الآن ، ومن تلك النقطة امتدت الأسوار التى كانت تطوق المدينة ، ثم تحولت القلعة الى قصر كان يسكنه الملوك من وقت لآخر الى سنة ١٥٦١ حيث أقام بالقصر فيليب الثانى .

لم تكن مدريد عاصمة البلاد بصفة رسمية ، ولو أنها كانت فى الواقع فى أهمية العاصمة ، وأطلق عليها شارل الرابع لقب (ڤيلا كرثورادا) وكان يسكنها ٦٠٫٠٠٠ نسمة اذ ذاك ، وتضاربت الآراء عن سبب رغبة الحكام فى سكنى مدريد ، وهل يرجع ذلك الى جودة هوائها أو الى حسن

موقعهــا فى وسط المملكة ، وما يكتنفها من غابات جميلة لا يزال أثر بعضها باقيا الى اليوم • ولعل رغبة فيليب الثانى فى سكنى مدريد كانت ترجع الى قربها من الاسكوريال ؛ حيث كان يستطيع أن يراه بالتلسكوب (المنظار المقرب) فى الأيام الصحو من أبراج القصر بمدريد ، وهكذا صارت مدريد العاصــمة حتى لا يضطر الملك الى كثرة التنقل بين طليطلة وسيجوفا وڤالا دوليد ومدريد • واستصوب الملك أن يســتقر بلاطه فى بلد حبتــه الطبيعة بميزات كثيرة ، ولم تفسده دسائس بطانة البلاط كغيره من المدن الأخرى •

كان لارتقاء مدريد واعتبارها العاصمة أثره الواضح فى اتساع رقعتها واطراد عمرانها وزيادة عــدد سكانها ، وأزيلت الأسوار القديمة وأقيمت أسوار أخرى فى اتجاه الجنوب والشرق من المدينة • ثم أهملت تلك الأسوار بمرور الزمن ولم يبق منها الا بعض الأبواب القديمة ، ومنها باب كان قد شيد فى عصر شارل الرابع على شكل قلعة فى الجهة الشرقية من المدينة ، ونقش على هذا الباب رسم الشمس • وقد تهدم الباب واندثر حوالى سنة ١٥٢٥ ، ولكن اسمه ظل الى اليوم باقيا ، ويحمله الميدان الذى كان يطل عليه ذلك الباب • والى اليوم ترى فى مدريد (ميدان باب الشمس) ، وهذا الميدان هو سرة مدريد من قرون عدة ومركز النشاط والحركة ؛ كميدان بيكادللى فى لندن ولو أن النشاط به الآن قد خف عن ذى قبل •

أخذت مدريد تتسع وتنمو حول القصر الملكى فى اتجاه الجنوب والشرق ، ولكى تزور الأماكن الأثرية بمدريد ، عليك أن تبدأ بميدان الشرق Palacio de Oriente وهو أثر قديم هام ، ثم تتبع شارع بيلن Bailen ثم تعبر الفيادكت Viaduct حيث تشاهد شوارع المدينة بين مرتفعة على تل ومنخفضة ، ثم تصل الى كنيسة سان فرنسيسكو العظيمة San Francisco Granda وهى نموذج جيد لفن عمارة الكنائس ، وقد أنشئت فى القرن الخامس عشر وأعيد بناؤها سنة ١٧٨٤ ، ومن هناك تصل الى ميدان العرب Plaza de Moros مارا باحدى الأسواق القديمة للمواد الغذائية ، ثم الى شارع طليطلة الموصل الى بعض الأحياء الفقيرة ، وفى شارع طليطلة يرى على اليمين كنيسة سان أزيدرو San Isidro التى بناها الجزويت فى القرن السابع عشر ، ومدفون بها القديس القروى أزيدرو Isidro ويقال ان جثمانه باق لم يبل ، ثم تصل الى ميدان ميور Plaza Mayar المشهور بما به من العقود (البواكى) وقد ظل هذا الميدان من القرن السابع عشر مسرحا للحفلات العامة من دينية أو أعياد وطنية ، ومصارعة الثيران ، والمباريات المختلفة . ويقال ان الميدان يتسع لخمسين ألف متفرج يطلون عليه من شرفات المنازل المحيطة به ، ومن البواكى ومن المنصات التى تقام خصيصا لهذا الغرض .



سراى وزارة المواصلات بمدريد



شارع چوزيه انطونيو بمدريد

عندما تجتاز البواكى شمال الميــدان تصل الى Calla Mayor أهم شوارع مدريد القديمة ، ومنه الى شارع بيلن Bailen حيث توجــد دار البــلدية ومقابلها برج ليچان Luijan ، ويقال ان فرنسيس الأول سجن بهذا البرج ٠

القصر الملكى

القصر الملكى من أهم الأبنية التاريخية وأجملها ، ويطل على نهر مانذنارس ، وقد شيد فى مكان أحد قصور العرب ، وسبق أن دمرت النيران القصر ولكن أعيد بناؤه ويسمح بزيارته فى أوقات معلومة مقابل رسوم بسيطة ، ويرافق الزوار أحد حراس القصر ويشرح لهم تاريخه ، والقصر جميل جدا به من القاعات والابهاء الفخمة والأثاث الثمين الشىء الكثير ٠

وبجوار القصر متحف للأسلحة ، به مجموعة كبيرة من مختلف العصور ٠

ويوجد بمدريد كما يوجد بغيرها من مدن أسبانيا الكثير من الكنائس ويشيد بهــا الآن كنيسة عظيمة بالقرب من القصر الملكى ٠

متحف البرادو

البرادو أهم متاحف مدريد بل من أهم متاحف العالم من حيث فن التصوير ، لما حواه من لوحات هى آية فى الدقة

والعظمة الفنية. وبه من لوحات الفنانين الأسبان مجموعة ضخمة جدا من عمل دياجو فلسكيبه (١٥٩٩ — ١٦٦٠) Velasqueiz الذى خلدت لوحاته الملك فيليب الرابع وأسرته . وبالمتحف بعض لوحات El-Greco — أى الرومى — وهو يونانى الأصل (١٥٤١ — ١٦١٦) اسمه دومنيكو تيوتوكوبلى من تلاميذ تيسيان Titian

ومن كبار الفنانين الأسبان جوزيه ريبيرا Jose Ribera (١٥٨٨ — ١٦٥٦) ، وفرنسيسكو زير باران Zurbaran (١٥٩٨ — ١٦٦٢) ، والفنان العظيم موريلو Murillo (١٦١٧ — ١٦٨٢) ، الذى ولد فى اشبيلية ولم يغادر أسبانيا طول حياته ، وكان فنانا متدينا سجلت لوحاته القديسين والقديسات ، والفنان جويا Goya (١٧٤٦ — ١٨٢٨) ، وكثيرون غير هؤلاء من كبار الفنانين المشهورين شهرة عالمية من أسبان، وايطاليين، وفلمنكيين ، ولو أراد السائح أن يزور متحف البرادو زيارة بحث وفحص وتدقيق لاحتاج الى أيام، بل الى أسابيع وشهور .

ويوجد بمدريد متاحف أخرى غير متحف البرادو . وقد اتسعت رقعة مدريد اتساعا مطردا ، ووصلت الى درجة رفيعة من العمران بين سنتى ١٨٥٠ و ١٩٠٠ ، ولكنها تطورت الى حالتها الراهنة من فخامة وعظمة فى العشرين أو الثلاثين السنة الماضية ، عندما أقيمت تدريجا المبانى الضخمة الفخمة

الشامخة وهى كثيرة جدا على جوانب شوارع طويلة متسعة .
ومن الأبنية العامة الهامة بناء ادارة البريد ، ودار النيابة ،
ودور الوزارات التى كانت مبعثرة هنا وهناك فأقيمت لها
الدور الجميلة . ومن الأبنية الجميلة أيضا دار بنك أسبانيا ،
ومجلس الأبحاث العلمية ، ويضم بناؤه البديع ما يلزم لاقامة
الأساتذة والطلاب ، وقد أنشىء هذا المجلس بعد الحرب
الأسبانية الأهلية .

أما المدينة الجامعية ومبانيها الكثيرة التى تضم جميع
الكليات ، وادارة الجامعة ، ومساكن الطلبة على أحدث
النظم وأفخمها ، فتضارع أحسن ما يوجد من مثيلاتها فى
العالم . وقد بدأ انشاؤها فى عهد الملك ألفونس الثالث عشر ،
أما حديقة الرتيرو Retiro Park ومساحتها ٣٥٠ فدانا فى وسط
مدريد ، فحدث عن جمالها وحسن تنسيقها ، والعناية الفائقة
بصيانتها ، عناية يشترك فيها الجمهور فلا يجرؤ أحد على
اتلاف الأشجار أو الزهور ، أو القاء أى شىء على مروجها
الخضراء أو طرقاتها . وبالحديقة مجموعة ممتازة من الورد ،
وبركة ماء يقوم عليها تمثال بديع للملك ألفونس الثانى عشر ،
وبأحد نواحيها حديقة الحيوان . وبالحديقة بيتان كبيران
من الزجاج تقام بهما المعارض .

يتسع بناء مصارعة الثيران بمدريد لستة وعشرين ألف
متفرج ، وهو بناء ضخم فخم متسع الأرجاء ، كما أن ملعب

كرة القدم من أكبر الملاعب فى العالم، ويكفى لخمسة وسبعين ألف متفرج • وليس هذا بالملعب الوحيد بمدريد بل يوجد ملعب آخر لكرة القدم عظيم الاتساع أيضا •

ويوجد بمدريد جملة حمامات للسباحة ، وملاعب للبولو والجولف ، وميادين لسباق الخيل ، وصيد الحمام •

ولقد جاء فى كراسة مصلحة السياحة التى قدمنا للقارىء العزيز أهم ما حوته من معلومات ، أن نسبة عدد دور السينما بمدريد لعدد السكان تفوق نسبتها فى أى عاصمة من عواصم أوروبا وأمريكا ، كما أن دور التمثيل بها لا تقل عن مثيلاتها بالخارج ، وأن دار الأوبرا التى آلت للسقوط يعاد بناؤها الآن •

هذه خلاصة ما عندى من معلومات عن عاصمة أسبانيا ، تجمعت مما رأيت ومما قرأت عنها ، ولم أر الاسترسال فى ذكر المعالم والشوارع فان ذلك لا يفيد القارىء ، وليس فيه الغناء للزائر ، ويحسن عند الوصول الى مدريد الاتصال بأحد مكاتب السياحة التى تنظم رحلات صباحية وأخرى بعد الظهر لزيارة مدريد بصحبة دليل متمرن يتكلم الفرنسية أو الإنجليزية ، ورحلة الصباح غير رحلة المساء فاذا أمكن السائح الجمع بين الرحلتين ، فانه يحصل على معلومات وافية كافية عن مدريد ومعالمها ، ويمكنه بعد ذلك العودة منفردا الى زيارة ما استهواه من المعالم •

ومن أهم ما يراه السائح فى تجواله بسيارة مكتب السياحة مصنع للسجاد بمدريد ، ينتج سجادا يشبه الى حد بعيد سجاد أوبيسون وجوبلان بفرنسا ، وقد رأيت عند زيارتى للمصنع سجادة تم صنعها قريبا ، تمثل حفلة لمصارعة الثيران نقلا عن لوحة لأحد كبار الفنانين الأسبان ، وقد أعجبت كل الاعجاب بدقة صناعة هذه السجادة وتناسق الألوان وانسجامها • ولما استفسرت عن الثمن علمت أنه يعادل نحو ألف جنيه مع أن السجادة لا تتجاوز أربعة أمتار مربعة، وهذا يزيد على ثمن سجادة أوبيسون أو يعادله ، رغم ارتفاع أجر اليد العاملة فى فرنسا عنه فى أسبانيا ارتفاعا كبيرا ، اذ يبلغ أجر النساج الفرنسى فى أوبيسون نحو خمسة أضعاف أجر زميله فى أسبانيا ، ولا غرو فان كلف المعيشة فى فرنسا مرتفعة عنها فى أسبانيا ، كما أن العامل الفرنسى يعيش عيشة أكثر رغدا وينعم بالكثير مما لا يحلم به العامل الأسبانى •

* * *

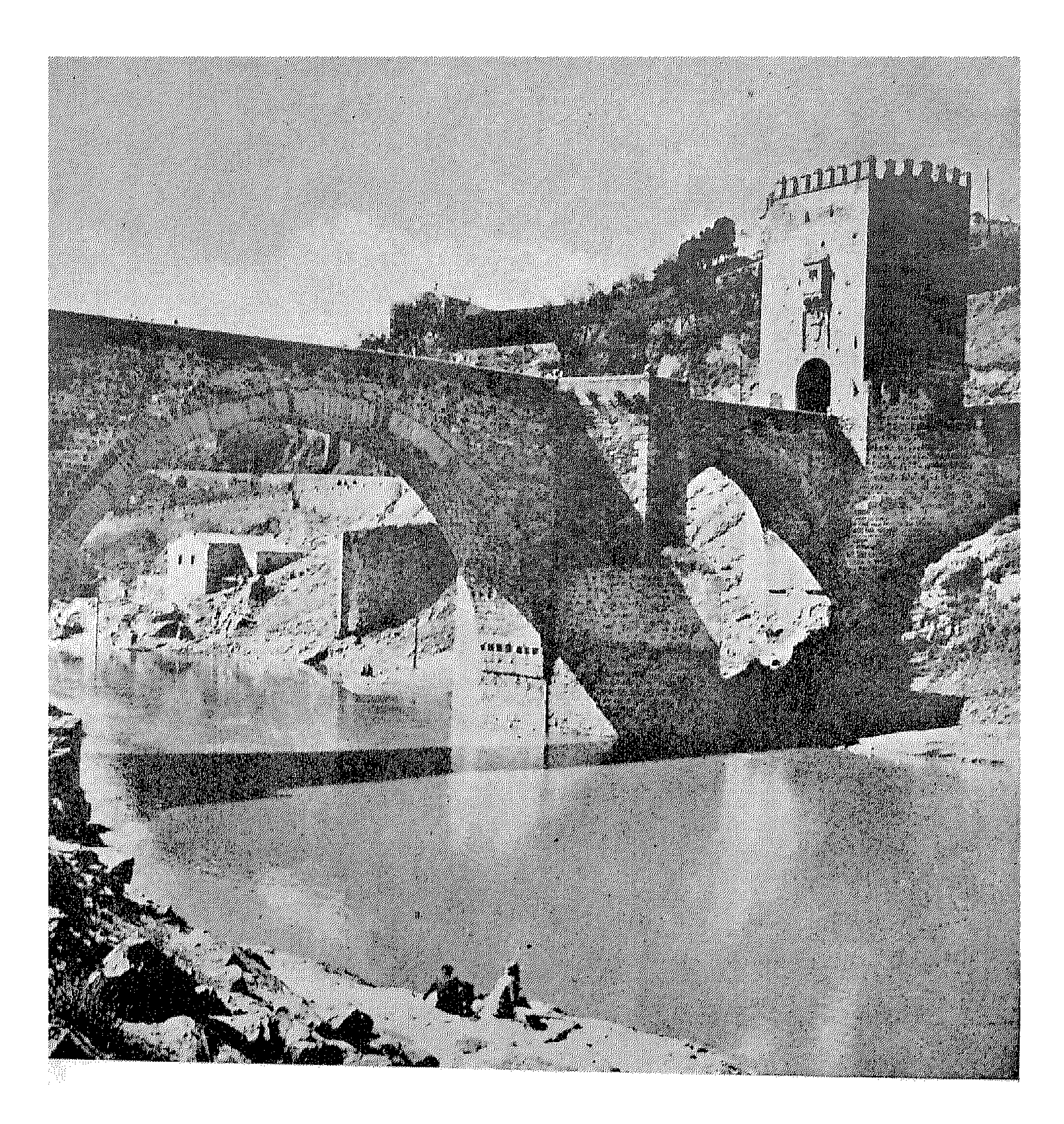
من مميزات مدريد التى يلاحظها الزائر ازدحام شوارعها الكبيرة فى الأمسيات بالأسر الأسبانية تتجول وتتمشى فى سرور وابتهاج ، ضاحكين مستبشرين يتسامرون على ظهر الطريق ، قد طرحوا همومهم ، غير متبرمين ولا متزمتين ، ولا صاخبين ، بل الهدوء والمرح هما مظهر تلك الكتل البشرية التى تزخر بها الشوارع كل مساء •

ومن مدريد تستطيع أيها القارىء العزيز أن تزور الكثير من مدن أسبانيا الأثرية ، وسأذكر لك بعض المعلومات المفيدة عن طائفة منها ، ومهما كان وقتك فى مدريد ضيقا ومحدودا ، فلا بد من زيارة طليطلة ، والأسكوريال ، ويمكن السفر الى كل منهما بالسكة الحديد أو بسيارات السياحة ، وهنالك يجد الزائر بعض المرشدين . كما أن شركات السياحة بمدريد تنظم رحلات مشتركة بسيارات فخمة « بولمان » مريحة ونظيفة ، ويرافق المسافرين مرشد متمرن يتكلم الفرنسية والانجليزية وتخصص عادة سيارات لكل مجموعة من السائحين حسب اللغة التى يتكلمونها . ولا شك أن زيارة مثل طليلطة والأسكوريال وغيرهما من البلاد الأثرية بسيارة من سيارات السياحة أسهل وأحسن وسيلة لمن يزور أسبانيا لأول مرة .

طليطلة Toledo

تقع طليطلة على مسافة نحو ٦٠ كيلو مترا من مدريد ، وتعتبر طليطلة جميعها متحفا ، لوفرة ما بها من آثار لمختلف العصور لها أهمية تاريخية كبيرة .

اذا وصلت الى طليطلة بالسكة الحديد ، فعليك أن تقصد توا الى مكتب السياحة الحكومى حيث يقدم اليك — مجانا — ما لديه من مطبوعات مفيدة عن طليطلة ، ومنها



القنطرة فى طليطلة

خريطة تبين الآثار ومواقع كل منها لتختار الأماكن التى ترغب في زيارتها • أما اذا كنت مشتركا فى رحلة من رحلات مكاتب السياحة فسوف يصحبك الدليل لزيارة أهم معالم المدينة •

ومحطة طليطلة فخمة البناء تم تشييدها فى سنة ١٩١٨ ولها بهو متسع مزخرف زخرفة فنية دقيقة ، وبه النوافذ الزجاجية على شكل « حدوة » الحصان تمشيا مع طراز البناء • ويزين القيشانى جدران البهو ، وعلى باب الخروج نرى القيشانى أيضا برسوم عربية بديعة ، والثريات الجميلة مدلاة من السقف المزخرف بالنقوش الفنية الدقيقة •

تحيط بطليطلة الأسوار وتكثر بها الكبارى الضخمة العتيقة المقامة على أوديتها السحيقة المنخفضة ، ويكاد يحيط بها نهر التاج Tagus فتبدو كقلعة قديمة يكتنفها خندق • وطليطلة على قمة صخور شامخة غير منتظمة ، ومبانيها العالية مقامة على جوانب طرقات ضيقة بعضها لا يتسع لغير المشاة• ويغلب على مبانيها الطابع العربى رغم وجود آثار كثيرة بها تمثل مختلف العصور والفنون من عهد الرومان فى القرن السادس ، الى العصر الحديث فى القرن الثامن عشر ، مما يجعل طليطلة بمثابة متحف عظيم يحوى أنفس الآثار الفنية من رومانية ومسيحية وعربية •

فتح طارق بن زياد طليطلة سنة ٧١٢ م ، وظلت تحت حكم الخلفاء الى سنة ١٠١٢ حيث استقل بها أحد الأمراء

العرب من ملوك الطوائف • وفى سنة ١٠٨٥ استضعف ألفونس السادس أمير طليطلة اذ ذاك فحاربه وانتزعها منه ، وكان هذا آخر عهد العرب بها • وجعلها ألفونس مقر ملكه، ومقام رئيس الكنيسة الأسبانية • واحتفظت طليطلة بهذا الطابع الدينى الى يومنا هذا •

حول العرب عند استيلائهم على طليطلة سـنة ٧١٢ كنيستها الى مسجد ، ولما استرد ألفونس السادس المدينة عام ١٠٨٥ ، سمح للمسلمين أول الأمر بالاستمرار فى اقامة شعائرهم الدينية بمساجدهم ، ولكن سرعان ما تغيرت الحال بعد سنة واحدة ، وتحولت المساجد الى كنائس ، ومنها كنيسة سنتا ماريا الفخمة وكنيسة سانتا ماريا دى ترنزيتو ، وقد انتهز العمال اليهود الفرصة عندما عهد اليهم العمل فى عمارة المسجد عند تحويله الى كنيسة فمحوا بعض الكتابة الغربية وكتبوا مكانها كتابات عبرية •

كتدرائية طليطلة

بدأ انشاء كتدرائية طليطلة الشامخة الفخمة فى القرن الثالث عشر وهى فريدة فى عمارتها على الطراز القوطى الأسبانى الذى يجمع بين الطراز القوطى الفرنسى وضخامة العمارة الأسبانية ، وللكتدرائية ثمانية أبواب خارجية عظيمة ترجع الى عصور مختلفة للطراز القوطى وتمثل تطوره •

وأهم هـــذه الأبواب باب الساعة ، وباب الغفران ، وباب الكاتب ، وباب النخل ، وباب السباع وباب القديسة كتالينا وواجهات الأبواب مزخرفة وعليها التماثيل الفنية الجميلة الضخمة البديعة الصنع .

وبالكنيسة سبعمائة وخمسون نافذة من الزجاج الملون المنقوش بأجمل النقوش وأدقها ، ويبلغ طول الكتدرائية نحو ١٣٠ مترا وعرضها ٦٠ مترا ، ولها قبة عالية شامخة مقامة على ٨٤ عامودا ، وممشى على الجانبين به المعابد المختلفة الاتساع جميلة التصميم والزخرف الذى يدل على البذخ وسلامة الذوق ورقى الفن ، وللكتدرائية أبراج عدة عالية . واستمرت عمارة الكتدرائية وتحسينها وتجميلها واضافة أجزاء اليها منذ انشائها عام ١٢٢٧ — الى سنة ١٤٩٣ ، وقد أشرف على عمارتها أحـــذق المعماريين ، وفى مقدمتهم المهنـــدس بيدروبيريز Pedro Perez الذى أشرف على عمارتها مدى خمسين عاما وتوفى سنة ١٢٨٥ . وفى القرن الثامن عشر أجريت بعض توسيعات وزخارف أخرى .

وبالكتدرائية الكثير من آثار أعظم الفنانين المصورين مثل جويا والجريكو ، وتمثل لوحاتهم المسيح والعذراء وغير ذلك من المشاهد الدينية .

والكتدرائية فخمة جـــدا من الخارج ومن الداخل ، وتحوى خزائنها من التحف الثمينة الشىء الكثير ، وبعضها

مصنوع من الذهب الخالص والفضة ، ولن يفى الشرح مهما طال ولا يغنى عن الزيارة ، لذا سأكتفى بما قدمت على قلته حتى تتاح الفرصة للقارىء ليزور طليطلة ويرى بعينيه كتدرائيتها العظيمة وما حوته من كنوز نادرة .

أما أعياد طليطلة الدينية فتقام فى جو من البهاء والعظمة لا مثيل لهما فى العالم ، وفى مناسبة عيد القيامة تزين حوائط الكتدرائية من الخارج بأثمن السجاجيد النفيسة صناعة أراس Arras وبروكسل .

وبطليطلة كنائس أخرى ومعابد يهودية من القرن الرابع عشر .

بيت الجريكو (١٥٤١—١٦١٦) El Greco

الجريكو — أى اليونانى — هو دومنيكو تيوتو كوبلى اليونانى الأصل والمولد ، وقد هاجر الى أسبانيا وهو فى الثلاثين من عمره وتتلمذ على تيسيان وقد نبغ فى فن الرسم والتصوير وله لوحات خالدة فى متحف البرادو بمدريد ، ولكن معظم لوحاته محفوظة بطليطلة ، فى البيت الذى كان يسكنه ، وبالمتحف الملحق بالبيت وله مدخل خاص من الشارع ، وقد أهدى المركيز دى لاقيجا انكلان البيت والمتحف الى الأمة . ويقال أن البيت يكاد يكون بحالته التى كان عليها عندما كان يسكنه الجريكو ، ويرى الزائر للبيت

حجراته العديدة ومنها حجرة النوم وحجرة الرسم والمطبخ وحديقة أنيقة . ومن البيت يطل المرء على المدينة فيرى منظرا جميلا خلابا .

ويحوى البيت والمتحف الكثير من اللوحات ، كما يوجد بكنيسة القديس تومية Santo Tome أعظم لوحات الجريكو وأبدعها (دفن الكونت أورجاز) Count of Orgaz حيث صور الفنان هذا الكونت الورع التقى تحمله الملائكة الى السماء ، بينما كان القسس وأعيان البلدة يعملون على دفنه بالكنيسة .

القنطرة Alcantara

من آثار العرب فى طليطلة الجسر المقام على نهر التاج ، وقد شيده العرب عام ٨٦٦ م وظل قائما الى سنة ١٢٥٧ حيث تهدم أكثره اثر عاصفة هوجاء ولم يبق منه الا الأبراج وبعض الأعمدة ، فأمر ألفونس العاشر (المشهور بألفونس الحكيم) باصلاحه وترميمه حتى لا تعزل طليطلة عن المدن الأخرى .

ومن فوق هذا الجسر الأثرى يرى الانسان أجمل وأحلى المناظر الطبيعية .

بالقرب من القنطرة توجد آثار جسر قديم من عهد الرومان والقوط ، وقد تهدم فشيد العرب جسرهم فى نفس الموقع .

قلعة سنتا سرفندو

بناها المسيحيون للدفاع عن المدينة ضد هجمات العرب ومحاولتهم استرداد المدينـــة التى انتزعها منهم ألفونس السادس ولا تزال القلعة الى اليوم محتفظة بشكلها الخارجى الأول حسن المظهر متين البناء ، أما واجهتها فيها المدخل ، والبوابة الكبيرة ، وعقد الباب والباب ، كلاهما على شكل حدوة الحصان الطابع المميز للطراز العربى .

ومن الآثار التى فى طليطلة تمثال الملك واقفا ، وكذا باب الشمس وقد اشتغل فى بنائه العرب الذين تخلفوا فى طليطلة بعد أن استولى عليها ألفونس السادس .

القصر Alcazar

يقوم القصر بأعلى موقع فى طليطلة وله شهرة عالية ، وقد بناه الرومان وكان مقرا للحكام ثم تحول الى قصر بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة ، وقد وسعه كل من چون الثانى ثم فرديناند وايزابلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثانى . وقد دمرته النـــيران أكثر من مرة ثم يعاد ترميمه وقد حرقه جند فرنسا أيضا سنة ١٨١٠ ، كما شب بداخله حريق مريع سنة ١٨٨٧ دمر أكثره فأعيد اصلاحه ، ثم تحول الى مدرسة منذ ســنة ١٨٨٢ الى ســنة ١٩٣٦

عندما نشبت الحرب الأســبانية الأهلية فاحتله جنود الحركة الوطنية وبعض المدنيين ، واعتصموا به من الثوار الجمهوريين أسابيع عديدة طويلة ، بقيادة الجنرال موســكاردو • ومن الحوادث التى سجلها تاريخ هذا الكفاح المرير أن الثوار الجمهوريين ظفــروا بابن الجنرال حامى القلعــة وأسروه وهددوا والده الجنرال بقتل ولده اذا لم يسلم هو وجنده ، ولكن الوالد رفض وظل يقاوم ويدافع ، ونفذ الجمهوريون وعيدهم وقتلوا الابن البرىء •

ومن معالم طليطلة الهامة المستشفى الكبير عظيم البناء • وطليطلة مشهورة بالصلب الممتاز وبها صناعة الأسلحة من قديم الزمان وللحكومة بها مصنع للأسلحة ، وصلب طليطلة مشهور بمرونته وقد وصلت صناعة الأسلحة بها الى أوج عظمتها فى عهد العرب ، وصناعها مهرة جدا فى تطعيم المعادن بأسلاك الذهب والفضة ، ويرى الزائر بنفسه العمال يعملون فى هدوء وصبر فاذا ما لاحظوا اهتمامك عرضوا عليك كتابة الحرف الأول من اسمك بأسلاك الذهب على خاتم أو نحو ذلك ، وسرعان ما ترى السلك الذهبى وقد استوى على الخاتم يمثل الحرف الذى طلبته وترى هذه الصناعة بالقاهرة فى خان الخليلى حيث يقوم العمال المصريون بتطعيم النحاس بأسلاك الفضة أو الفضة بأسلاك الذهب •

قصر الأسكوريال

أمر فيليب الثانى ببنائه سنة ١٥٦٣ وأشرف على البناء المهنــدس المعمارى جوان دى هريرا واستغرقت عمارته احدى وعشرين سنة كاملة ، وقد اختار الملك بنفسه الموقع بعد بحث دام شهورا ، وعمارته على طراز عصر النهضة ، وقد استعمل فى بنائه الجرانيت الأزرق وقد جلب اليه من وادى رامة بأسبانيا ومظهر البناء الخارجى ليس جــذابا ولا يتفق وما اشتمله البناء من الداخل من مظاهر العظمة وسمو الفن •

يقع الأسكوريال على قمــة ترتفع ألف متر عن سطح البحر ، ويبعد نحو خمسين كيلومترا عن مدريد ، ويمكن الوصول اليه بالقطار أو بالسيارات العامة التى تسافر الى هنــاك يوميا فى مواعيد معــلومة ، ولكن الأوفق زيارة الأسكوريال فى رحلة من رحلات شركات السياحة ليشرح لك الدليل المرافق للركاب جميع ما تراه هناك باللغة التى تفهمها ، ومن الميسور لمن يسافر بالقطار أو السيارات العامة أن يجد على أبواب الأسكوريال مرشدا يرافقه نظير أجر معلوم •

يشمل بناء الأسكوريال الضخم الكنيسة والمقبرة والدير والقصر •

وبناء الكنيسة على الطراز القوطى على شكل الصليب اليونانى من الخارج ، أما من الداخل فمربعة عظيمة الاتساع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو الخمسين مترا ، وفى وسطها أربعة أعمدة ضخمة مرتفعة عليها العقود التى تحمل قبة الكنيسة وقطرها سبعة عشر مترا ويعلوها صليب كبير . وللكنيسة برجان عظيمان ارتفاع الواحد منهما ٧٣ مترا وبها ٤٤ مصلى لهـا مقاعد من الخشب الثمين المزين بالنقوش المحفورة من صنع أمهر صناع ذلك العهد ، وبأحد المصليات فى ركن من أركان الكنيسة باب سرى صغير غير ظاهر كان يستعمله الملك فيليب الثانى فيدخل منه الى الكنيسة من غير جلبة وبدون أن يرى فيؤدى الصلاة .

وبأحد المصليات الصغيرة يوجد تمثال من الرخام جميل من ابداع الفنـان ذائع الشهرة بنفيتو سللينى Benveuto Cellini كما توجد مجموعة من التماثيل لفيليب الثانى وأسرته وأخرى لشارل الخامس وزوجته وبعض أقاربه وهم يصلون . ويوجد بالغرف التى تحوى ملابس الكهنة وكنوز الكنيسة مجموعة ثمينة من اللوحات الجميلة من الفنانين الموهوبين الجريكو El-Greco ، وريبيرا Ribera ، وجوردان Jordan ، وتيسيان Titian ، ولوحـة خالدة من أعظم لوحات كلوديو كويللو Claudio Coello . ومن الكنيسـة يمكن الوصـول الى المقبرة الملكية التى تضم جثمان جميع ملوك أسـبانيا من

شارل الأول الى ألفونس الثانى عشر ما عدا ثلاثة منهم هم فيليب الرابع المدفون فى لاجرانچا Lagranga ، وفرديناند السادس المدفون باحدى كنائس مدريد ، وألفونس الثالث عشر الذى مات بعيدا عن بلاده أثناء الحرب العالمية الثانية ودفن فى روما ، كما تضم المقبرة جثمان بعض أعضاء الأسرة المالكة .

ينزل الى المقبرة الملكية بسلم من المرمر الوردى الجميل ، وحوائطها من المرمر نفسه أيضا ، أما القاعة التى يدفن بها الملوك فمثمنة الشكل ، ومن المرمر الأسود ، ولها دخلات بكل واحدة منها أربع نواويس بعضها فوق بعض ، وبهذه النواويس جثث الملوك . والعادة أن يوضع تابوت الملك المتوفى ٥ سنوات بالدير الملحق بالكنيسة قبل دفنه بالمقبرة الملكية .

من قاعة مدافن الملوك يوصل دهليز مفروش بالمرمر الى غرف أخرى مختلفة بها مقابر بعض أعضاء الأسرة المالكة ، كما أن ببعضها أطفال الأسرة الذين ماتوا دون السابعة من عمرهم . وبالرغم من بساطة المقبرة الملكية وخلوها من الزخارف فانها تترك فى نفس الزائر روعة لعظمة من احتوتهم من ملوك خلد التاريخ ذكرهم .

وملحق بالكنيسة دير يسكنه الرهبان والقسس الذين يقومون على خدمة الكنيسة واقامة الشعائر الدينية ، ويصعد

اليه بسلم ضيق ، وبهـذا الدير المكتبة التى تحوى نحو أربعين ألف مجلد من الكتب الثمينة باللغات اليونانيـة واللاتينية والعبرية ، قد وشيت كتاباتها وجلودها الثمينة بالذهب ، وبالمكتبة الكثير من المحفوظات القديمة النادرة ونحو ألفى مجلد عربى من بينها القرآن الكريم ، كما حوت المكتبة تاريخ حيـاة القديسـة تريزا Sainta Tereasa ، وقد كتبته بنفسها وبخط يدها ، كما يوجـد مجلد آخر مكتوب بخط الملك فيليب الثانى .

وقاعة المكتبة متسعة الأرجاء يبلغ طولها نحو ٥٥ مترا وحيطانها مزينـة بمجموعة من لوحات أشـهر الفنانين ، أما الخـزائن التى بهـا الكتب فمن تصميم المهنـدس جوان دى هريرا الذى أشرف على اقامة البنـاء ووضع تصميمه .

الآن وقد طفنا بالكنيسة والمقبرة والمكتبة فلنذهب معا الى زيارة القصر حيث عاش ملوك أسبانيا أحقابا طويلة . والقصر متصـل بالكنيسة تنفيذا لرغبة الملك فيليب الثانى الذى أمر ببناء الأسكوريال .

يقع باب القصر على بهو عظيم الاتساع ويحوى القصر عددا كبيرا من الحجرات مختلفة الاتساع ، ومنها حجرات الطعام والاستقبال وحجرات النوم والمكتب وغير ذلك ، وجميع حوائطها محلاة بالبسط الثمينة التى تمثل أجمل المناظر وأدقها وقد نقلت من لوحات لأعظم فنانى ذلك العصر .

وقد اختير أثاث الحجرات ليتناسب مع طراز رسومات هذه الأبسطة الفاخرة التى تحلى حوائط الحجرات والأبهاء « الصالات » • ويوجد بالقصر مئات الساعات موضوعة على المناضد والمدافىء والكنسولات وبعض الساعات يدق نغما موسيقيا جميلا ليعلن الوقت ولا يزال بعضها صالحا الى الآن •

أما قاعة العرش فجدرانها محلاة بأبسطة فلمنكية مصنوعة بخيوط من الذهب والفضة والحرير والصوف •

أهم ركن من أركان القصر الآن هو ولا ريب الجناح الذى كان مخصصا للملك فيليب الثانى ، ويوصل اليه دهليز ضيق ، ويقال ان هذا الجناح اليوم لا يزال كما كان تماما عندما كان يسكنه الملك ، حيث يوجد الآن مكتبه وكرسيه ودواته وكتبه وسريره الذى مات عليه والسرير موضوع بالقرب من محراب الكنيسة ليستطيع الملك وهو راقد فى سريره — ابان مرضه الطويل — أن ينظر من كوة صغيرة ويشترك فى الصلاة مع المصلين •

وبالقصر بهو كبير عظيم الاتساع ، نقشت على جدرانه صور لمواقع حربية عدة منها الموقعة التى دارت رحاها حول حصون غرناطة بين جيوش فرديناند وأمير غرناطة سنة ١٤٩٢ وانتهت بسقوط غرناطة وزوال ملك العرب عن آخر معقل لهم بأسبانيا • والصورة دقيقة الصنع جميلة التكوين وقصد بها — طبعا — تسجيل انتصار الأسبان وهزيمة العرب،لذا يرى

فى الصــورة فرسان العرب وجنودهم وحراب الأســبان وسيوفهم فى صدورهم ، وخيولهم شــاردة بعــد مصرع الفرسان .

بالقرب من القصر وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار يوجد قصر الأمراء ، وقد بنى سنة ١٧٧٢ وحجراته جميلة التنسيق كاملة الزينة ، وتحوى الكثير من الصور الصغيرة الحجم جميلة الشكل دقيقة الصنع وهى آية من آيات الفن .

اذا ما غادرت قصر الأمراء فعليك أن ترى بالحديقــة وفى احدى مماشيها مقعدا من الجرانيت هو مقعد الملك فيليب حيث كان يجلس عليــه ذلك الملك العظيم ليشاهد العمارة قائمة لبناء الأسكوريال حلمه اللذيذ .

هذه هى قصة الأسكوريال .

ومن مدريد يمكن زيارة بعض مدن أخرى أقل أهمية من طليطلة أو الأسكوريال ، ومنها سيجوفيا على مسافة مئة كيلو متر من مدريد وأرانچيز A ranjuerz حيث يوجد القصر الصيفى للملكة ايزابلا ، وقد وسعه فيليب الثانى وفى هذا القصر تنازل شارل الرابع عن العرش لابنه فرديناند السابع ، وتبعد أرانچيز عن مدريد بنحو ٥٠ كيلو مترا كما يوجد كثير من القرى الصغيرة بالقرب من العاصمة ، وبتلك القرى توجد المطاعم والمقاهى الخلوية النظيفة تحيط بها الأشجار وفى ظلالها توضع المناضد ، وحولها ترص المقاعد ، وينتهز سكان مدريد فرصـــة اعتدال الجو فيهرعون الى تلك الأماكن فرادى وجماعات .

أرين Irun

تقع أرين على الحدود بين فرنسا وأسبانيا ، ولا بد لمن يزور أسبانيا بالقطار أو السيارة أن يمر بأرين لعمل الاجراءات الجمركية ، وهى هينة لا تستغرق وقتا طويلا ، وعليك أن تعلن لموظف الجمرك اذا كنت تحمل أشياء جديدة أو كميات كبيرة من السجاير يستحق عليها رسوم وأن تسجل فى استمارة تقدم لك بيان ما معك من عملة أو خطاب اعتماد .

بعد أن تعبر الجسر الذى يفصل فرنسا عن أسبانيا ستلاحظ الفرق الكبير المدهش بين البلدين ، والاختلاف الواضح فى خلق أفراد الشعبين ، وليس فى أرين ما يستحق أن تتخلف بها لتراه ، وفى زيارتك العابرة الغناء .

سان سباستيان San Sebastian

سان سباستيان هى أعظم مصايف أسبانيا ويبلغ عدد سكانها الآن ١٢٠٠٠٠ وتقع على بحر الأطلانطى ، وبها القصر الصيفى للملك ، وتنتقل اليها الحكومة الأسبانية رسميا سنويا خلال أشهر الصيف ، وينتقل اليها تبعا لذلك جميع رجال الهيئات السياسية ، لذا فهى ملتقى أرقى الطبقات من أسبان وأجانب طوال أشهر الصيف .

تزدحم سان سباستيان بالمصطافين خلال أشهر يوليو

وأغسطس وسبتمبر ، ويؤمها الكثيرون من رواد بيارتز بفرنسا لمشاهدة مصارعة الثيران ، كما أن سان سباستيان مشتى مشهور لاعتدال جوها شتاء ، ولذا فبها الكثير من الفنادق الفاخرة ، وفنادق الدرجتين الأولى والثانية وما يناسب مختلف الطبقات والأذواق .

وتقع المدينة بين خليج بسكاى ونهر أيروما Urmea الذى يشطر سان سباستيان شطرين أحدهما على البحر الملح على شكل هلال ، وبهذا الجزء توجد الشوارع المتسعة والمبانى الجميلة والفنادق الكبيرة والمتنزهات الأنيقة ، والشاطىء رملى يزخر دائما بالمستحمين من رواد سان سباستيان .

أما الشطر الثانى أو المدينة القديمة فعلى سفح جبل أرجوله ، ويسكنها على الأكثر الصيادون ، والمدينة القديمة غير نظيفة وشوارعها ضيقة .

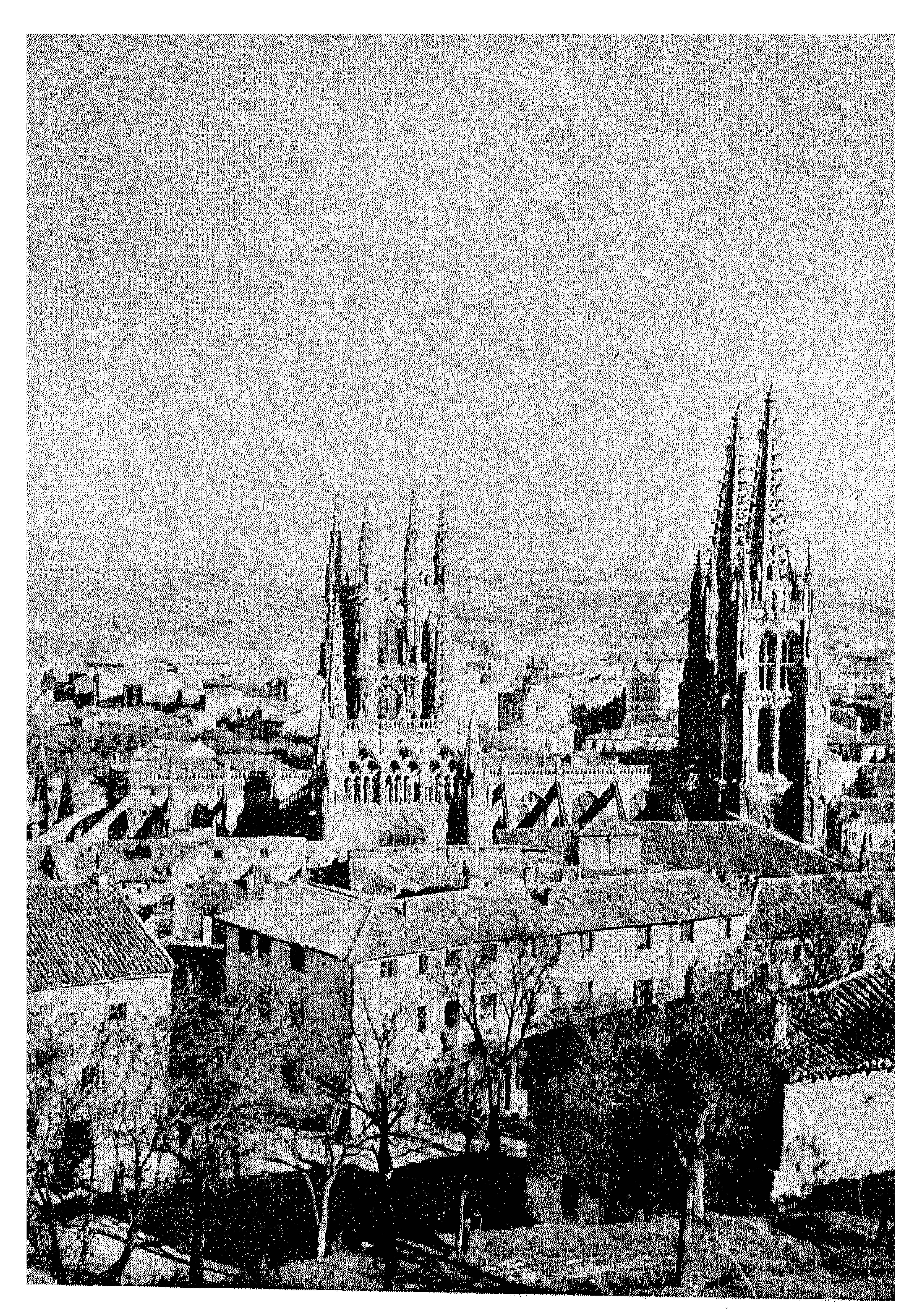
تقام فى فصل الصيف حفلات سباق الخيل ، ويشترك فى هذا السباق جياد من أشهر اسطبلات أوربا كما تقام مسابقات الزوارق ، ويوجد بسان سباستيان ميادين لعبة الجولف ونوادى للتنس وغيره من الألعاب الرياضية ، وقد أغلق الكازينو اذ يحرم القانون الآن المقامرة العلنية .

أما ساحة مصارعة الثيران فمن أهم وأعظم ما يوجد بأسبانيا ، ولا يفوتك وأنت فى سان سباستيان أن تزور بعض

ضواحيها وبخاصة باساخيس سان جوان Pasajes ، التى تبعد نحو عشرة كيلو مترات عن المدينة ، حيث ترى أحياؤها القديمة وشوارعها الضيقة ومبانيها العتيقة ، وقد استوطن فيكتور هوجو شاعر فرنسا العظيم أحد المساكن البسيطة بهذه الجهة عندما هاجر من بلاده الى أسبانيا ، وفى باساخيس يوجد مطعم كامارا Camara الشهير الفريد فى نوعه الذى يؤمه الزوار على بساطته ، وذلك لأكل اللانجوست (جراد البحر) الذى يراه الانسان حيا يمرح فى قفص ذى أسياخ من الحديد مدلى فى بئر وسط المطعم ، ويصل اليه ماء البحر ، وعندما تطلب هذا اللون من الطعام يرفع القفص من أسفل البئر كما يرفع الدلو المعروف بمصر ويصعد القفص الى حافة البئر وتختار لنفسك اللانجوست الذى تريد فيؤخذ الى المطبخ ثم يقدم اليك مطهيا بعد فترة قصيرة .

بيرجوس Burgos

ليس لبيرجوس أهمية خاصة ، وقد جاءت شهرتها العالمية من أنها مسقط رأس رودريجو دياز دى بيڤار Rodrigo Diaz de Bivar المشهور باسم « السيد » والذى شغل الأذهان منذ القرن الحادى عشر وكتبت عنه وعن مغامراته الأساطير والأشعار ، وترجمت الى لغات عدة ، وتوجد عنه مئات المؤلفات بالانجليزية وغيرها من اللغات . وليس « السيد » شخصية خيالية بل شخصية حقيقية ، فهو



كتدرائية برجوس

نبيل أسبانى مغوار ، وفارس مقدام ، من الأبطال الذين أبلوا بلاء سجله التاريخ فى مناضلة العرب وجهادهم . وحدث أن اختلف مع الملك « ألفونس السادس » فهاجر ومعه فريق من أعوانه الأبطال ولجأ الى أحد ملوك العرب وهو أمير سراجــوزا Saragoza الذى رحب به كل الترحيب وناداه « بأيها السيد » اعترافا بشجاعته وفروسيته ورجولته ، ثم لازمه فيما بعد هذا اللقب الذى طغى على اسمه الحقيقى فمحاه وعرفه الناس كما عرفه التاريخ باسم « السيد » ، وقد استولى على بلنسية عام ١٠٩٤ ولكنه توفى سنة ١٠٩٩ وقد استقر جثمانه فى كندرائية بيرجوس بعد أن تنقل قبل ذلك من مدفن الى آخر .

ومن الأساطير المشهورة عن السيد قصته مع اليهوديين « راكيل وفيداس » ، حيث عهد اليهما بحفظ صندوقين مملوءين بالمجوهرات والذهب الذى غنمــه فى حروبه مع العرب ، ولما عزم على الهجرة طلب أن يقرضاه مبلغا من المال يستعين به وأهله فأقرضاه ستمائة قطعة من الذهب بضمان كنوزه التى عهد اليهما بها .

وكم كانت مفاجأة مفجعة وخيبة أمل فادحة عندما فتح اليهــوديان الكنز فوجــدا ترابا وزلطــا ولا أثر للذهب والمجوهرات فيه !! .

* * *

بدأ تشييد كندرائية بيرجوس فى القرن الثالث عشر على

الطراز القوطى الذى كان فى أوج عظمته عندئذ ، وقد وضع حجر أساسها سنة ١٢٢١ فرناندو الثالث قاهر أشبيلية وقرطبة ، ولم تتم عمارتها الا بعد ثلاثة قرون ، ولو أن الجزء الأهم منها تم فى الثلاثين السنة الأولى حينما كان المهندس الذائع الصيت انريك بيريز Enrique Perez يشرف على عماراتها • والكنيسة تحفة جديرة بالدراسة وبخاصة داخلها الذى تتطلب دراسته والتمعن فى تفصيلاته أكثر من زيارة عابرة •

ومن أهم المعالم فى بيرجوس باب القديسة « ماريا » الذى كان فى القرن السادس عشر باب المدينة •

الأندلس

لا شك أن الأندلس هو أهم ما يستهوى المصرى : لماتركه العرب به من آثار خالدة وذكريات لا تمحى ، فتعال معى أيها القارىء الكريم لنطوف بالأندلس ، ونستمتع بجماله الفتان وخضرته الخلابة ، وجوه المنعش ، وسمائه الصحو خلال فصل الربيع •

والأندلس واسع الأرجاء عظيم الرقعة ، به العديد من المدن العامرة ، ويمكن البدء بزيارته من أى بلد من بلدانه ؛ وقد اخترت لك أن نبدأ الرحلة من أشبيلية عاصمة الأندلس ومنها نطوف أرجاءه ونزور مختلف مدنه •

ومن مدريد يمكن السفر الى اشبيلية بالطائرة (وهذا أفضل) أو بالقطار الذى يقطع المسافة فى نحو ١٢ ساعة وبقطار الليل عربات للنوم فاذا ما وصلت الى اشبيلية فستجد بها أعظم فندق فى أسبانيا ، بل فندقا من أعظم وأفخم فنادق العالم هو فندق الفونس الثالث عشر أو فندق (قصر الأندلس) كما يوجد غيره من فنادق الدرجة الأولى والدرجة الثانية ، والأسعار عموما معتدلة غاية الاعتدال ، والطعام فى جميع الفنادق جيد وافر الكمية .

يوجد بأشبيلية مكاتب للسياحة ترتب رحلات بسيارات بولمان للطواف بالأندلس جميعه وتستغرق الرحلة ستة أيام كاملة ، ويرافق المسافرين دليل متمرن يتكلم الانجليزية والفرنسية ويشمل الأجر الذى يبلغ على ما أذكر نحو ٣٧ جنيها الانتقال والفنادق ، كما ترتب مكاتب السياحة رحلات أخرى تستغرق يوما واحدا منها رحلة الى قرطبة وثانية الى قادس وهكذا .

يحسن أن يستفيد السائح من خدمات شركات السياحة خصوصا وأن أسعارها معتدلة .

وأرض الأندلس من أخصب أراضى أسبانيا ويرى المسافر عند اجتيازه تلك المناطق العامرة أشجار الزيتون والتين والرمان وكروم العنب والقمح والشعير والترمس وغير ذلك من مختلف أنواع الزروع بحالة

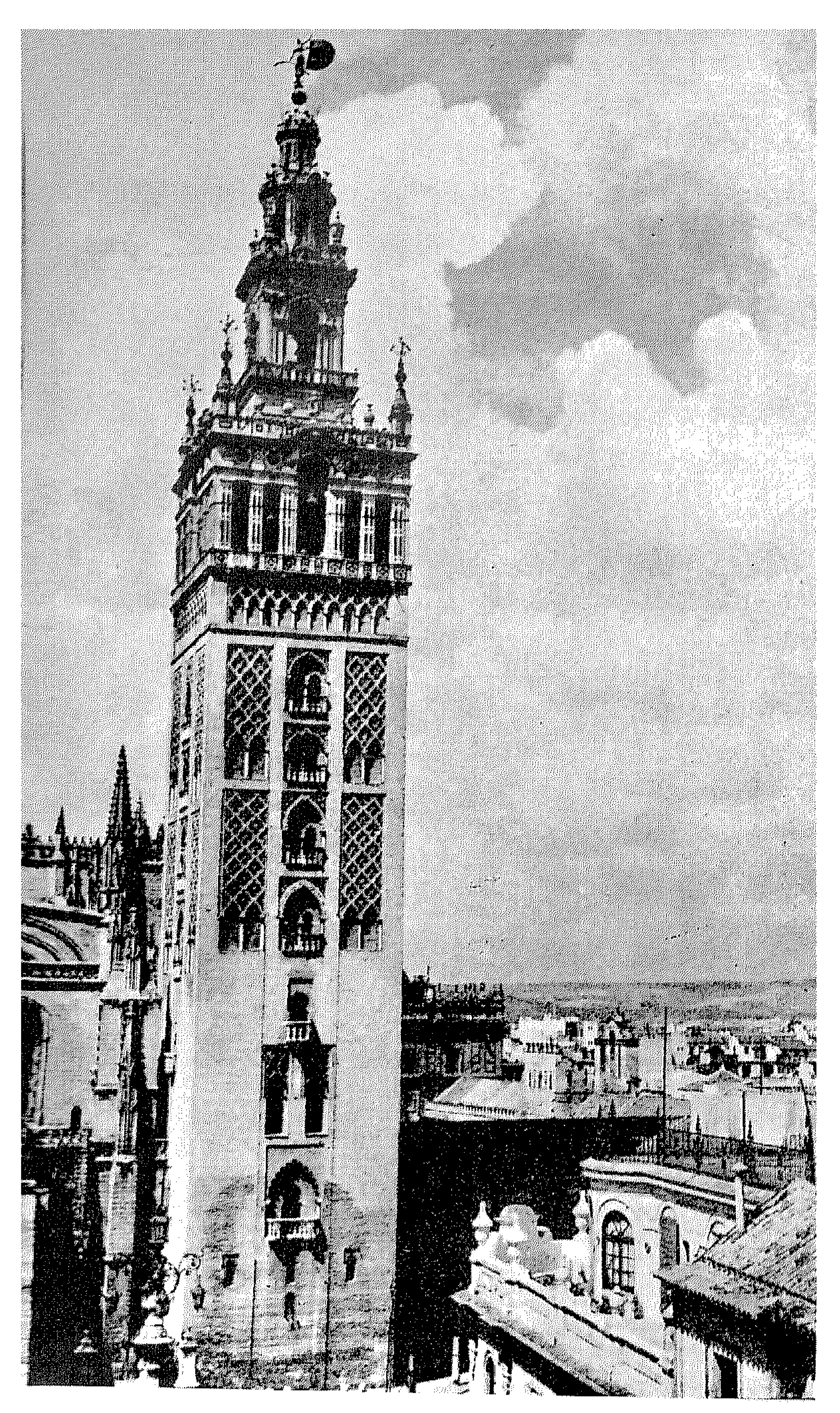
نمو جيد ، ونضرة ظاهرة . كما يرى السواقى التى تكاد تماثل ما يوجد منها ببلادنا .

أما المساكن فى جميع قرى الأندلس التى يمر بها المسافر بالسيارة فنظيفة غاية النظافة والجمـال ، جميعها أو غالبها أبيض ناصع البياض ، تلفت نظافتها ونظافة سكانها النظر ، وشوارعها مرصوفة ومعتنى بصيانتها ونظافتها ولا شك أن التجول فى أنحاء الأندلس فى فصل الربيع متعة تملأ النفس سرورا وغبطة .

أما وقد اخترنا أن نبـدأ زيارتنا للأندلس بأشـبيلية فلأذكر لك أيها القارىء العزيز بعض ما تراه بأشبيلية وأصف لك أهم معالمها .

أشـبيلية

تقع أشبيلية على الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير ، ويبلغ عدد سـكانها ٣٠٠٫٠٠٠ نفس وبها آثار لمختلف المدنيات والعصور جعلت لها طابعا خاصا مميزا كما كان لتلك المدنيات المختلفة أثر واضح فى طبيعة سكانها ، وقد فتحها العرب سنة ٧١٢ وظلت تحت حكمهم الى سنة ١٢٤٨ حيث انتزعها منهم سان فرديناند . وكانت اشبيلية ابان حـكم العرب عامرة واسعة الثروة تجارتها رائجـة ، وصناعاتها مزدهرة . وللعلم والعلماء بها شأن كبير ، وكان عدد سكانها يومئذ لا يقل عن عدد سكانها اليوم ، ولا يزال الطابع العربى



الجيرالدا ـ منارة مسجد اشبيليه وقد هدمه الاسبان

هو الغالب على مبانيها ، خصوصا فى بعض الأحياء ضيقة الشوارع والطرقات والتى تكاد جميع بيوتها أن تكون على الطراز العربى القديم ٠

وكان للعرب بها مسجد من أعظم ما شيد العرب فى أسبانيا ، وقد هدمه الأسبان ولكنهم احتفظوا بمئذنته فقط ؛ ويرى الآن بابه أو جزء منه قائما بالقرب من المئذنة القديمة ويدل الباب والمئذنة على ما كان عليه المسجد من الفخامة والاتساع ، وقد شيد الأسبان كتدرائيتهم مكان المسجد وأقاموا برجا بأعلى المئذنة وضعوا به أجراس الكتدرائية ؛ ويمكن الصعود الى أعلى هذه المنارة بطريق حلزونى استعيض به عن السلم المعروف لضخامة المنارة ، اذ يبلغ كل ضلع من أضلاعها الأربعة أكثر من ١٣ متر ، أما الجزء العلوى الذى أضافه الأسبان فله سلم عادى ، ووضع الأسبان على قمة البرج الذى أقاموه للأجراس تمثالا طوله ٤ أمتار ؛ ويتحرك حسب اتجاه الريح ومن هنا جاءت تسميتها (الجيرالدا) أى لعبة الهواء ٠

ومن فوق هذه المنارة التى يبلغ ارتفاعها ٧٠ مترا يرى الانسان منظرا جميلا لاشبيلية وما يحيط بها على مدى البصر ٠

أما الكتدرائية فعظيمة الاتساع فخمة البناء بها كغيرها من الكنائس بأسبانيا الكنوز القيمة ، ومنها جواهر الملك وتاجه وعصاته وبعض الشمعدانات الفضية دقيقة الصنع

عظيمة القيمة ، وبعض الملابس التقليدية من القرن الخامس عشر ، وسجادة صلاة فاخرة من عهد الحكام العرب ، ومجموعة من لوحات عظماء الفنانين أمثـال موريللو وأنچل وكانو وغيرهم وغيرهم ، وبعض نوافذ الكتدرائيـة من الزجاج المنقوش دقيق الصنع جميل الشكل مما يتناسب ومكانتها فى العالم المسيحى ، اذ هى الكتدرائية الثانيـة من حيث الاتساع • وكانت اشـبيلية مقر الملوك الكاثوليك عندما اكتشف كريستوف كولمب الدنيا الجديدة ، وكانت كتدرائية اشبيلية موضع عناية هؤلاء الملوك المتتابعين •

وبكتدرائية اشبيلية يوجد قبر كريستوف كولمب العظيم اعترافا بفضله على أسبانيا وتمجيدا لذكراه •

ولا داعى للاسترسال فى وصف الكتدرائية ، فان الوصف مهما طال لا يغنى عن الزيارة ولا تخلو بلد بل قرية واحدة من قرى أسبانيا من وجود أكثر من كنيسة فيها •

وتوجد فى اشبيلية دار الكتب (الكتبخانة) التى تحوى الوثائق الخاصة باكتشاف كريستوف كولمب لأمريكا ومن بينهما الخريطة التى رسمها بنفسه ووقعها بامضائه ومبينا بها الطريق القصير للوصول الى الهنـد بحرا • وهكذا عثر كولمب على الدنيا الجديدة ، بينما كان يريد ارتياد البحار للوصول من أقرب ناحية الى الهند ، وقد استقبل المكتشف العظيم استقبالا رائعا بأشبيلية عندما عاد من رحلته التى اكتشف أثناءها الدنيا الجديدة •



القصر والكتدرائية فى اشبيليه

يوجد بأشبيلية كنائس أخرى كثيرة غير الكتدرائية ، منها كنيسة سانت سالفادور من القرن الثامن عشر وبها تمثال جميل للمسيح من صنع المثال مونتان، وكنيسة سان ايزيدورو وعدة كنائس أخرى .

القصر

على مقربة من الكتدرائية يوجد القصر وهو بناء كبير ، والدور الأول منه من بناء العرب وعلى طرازهم ، أما الطابق العلوى فبناه ملوك الأسبان وقد دمرت النيران بعض أقسام القصر أكثر من مرة ثم يعاد ترميمه . وظل الملوك المسيحيون يسكنونه عند زيارتهم اشـــبيلية الى آخر ملك منهم وهو ألفونس الثالث عشر ، والى الآن يسكن الجنرال فرانكو الطابق العلوى من القصر عند زيارته اشبيلية ، ولكنه يأمر فيرفع أثاث حجرة نوم الملك وسريره ويوضع للقائد أثاث وسرير آخر احتراما لذكرى الملك الراحل ألفونس الثالث عشر .

ولا يوجد بالدور الأرضى أى شيء من الأثاث ، ويسمح للزوار بالتجول به بغير أن يرافقهم أحد حراس القصر ، أما الطابق العلوى فلا بد من مرافقة حارس للزوار . ويلاحظ الزائر لهذا القصر عدم التجانس فى عمارته ، فبينما الطابق الأول عربى ، اذا بالطابق العلوى خليط من طرز مختلف العصور ، كذا أثاثه فقد سكنه ملوك عديدون ، وكان لذوق

كل منهم أثر واضح فى ما يراه الزائر من تباين طرز الأثاث ونقوش الجدران والسقوف .

يدخل الزائر الى القصر من بهو واســـع به صفان من الأعمدة الرخامية ، وفى الجهة اليمنى من البهو دهليز يوصل الى صحن « حوش » غير مسقوف به بركة صغيرة من الرخام ومنه الى قاعة واسعة مربعة مرتفعة عليها قبة من الخشب جميل الصنع ، ويزين جدران القاعة من أعلاها نقوش جصية دقيقة وجميلة ، ومن أهم قاعات القصر بالدور الأرضى قاعة السفراء، وهى مربعة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو ١٢ مترا ، وارتفاعها لا يقل عن عشرين مترا ، ولها قبة من الخشب . بديع الصنع جميل النقوش ، ومن تحت القبة الخشبية هذه مناور مرتفعة ، ومن دونها ثلاث شرفات متصـــلة بالدور العلوى من القصر ، وفى كل جهة من جهات القاعة ما عدا الجدار الذى به الباب عمودان من المرمر الجميل ، وبالقصر قاعات أخرى فسيحة وجميلة ، يزين جدرانها من أســـفل القيشانى المنقوش بنقوش عربية ، ويزين الحوائط من دون السقف المقرنصات من المصيص ، ويزين السقوف والحوائط نقوش جميلة ذات ألوان حمراء وخضراء وزرقاء ، تتخللها نقوش بالذهب البراق وكتابات عربية بالخط الكوفى الجميل .

أما الطابق العلوى الذى سكنه ملوك الأسبان أجيالا متعاقبة ، فيغلب على نقوش حجراته وأثاثه الطابع الأفرنجى

من عصر النهضة الى الطراز الغالب فى القرن التاسع عشر . ويحوى الكثير من اللوحات الجميلة أكثرها لأفراد الأسرة الأسبانية المالكة ، وبه حجرة نوم الملك ألفونس الثالث عشر بالحالة التى كانت عليها تماما عندما كان يستعملها الملك حين زيارته لاشبيلية عاصمة الأندلس من وقت لآخر .

يحيط بالقصر بستان جميل التنسيق فسيح الأرجاء ، قسم منه فى مستوى أعلى من القسم الآخر ، وبه مجموعة كبيرة بديعة قيمة من أشجار الفاكهة ، وكذلك أشجار ونخيل الزينة والزهور والرياحين ، وبأحد أركان البستان حمام كبير من الرخام للسباحة اتساعه نحو ٢٠×١٥ مترا ، ويقال ان عمقه ثلاث أمتار . وهـذا هو حمام الملك ، اذ بالحديقة بركة أخرى كبيرة للسباحة طولها نحو ٥٠ مترا وعرضها ٨ أمتار وليست بالرخام كالأولى ، ويقال انها حمام النساء وكانت الجوارى تسبحن بها أيام أمراء العرب وملوكهم .

قصر بيلاتوس

هو قصر خاص لأحد أفراد أسرة الدوق بدرو ، شيد فى القرن الخامس عشر ، ويسكنه الآن صاحبه ، ويسمح بزيارة الطابق الأول منه مقابل أجر زهيد يذهب لبعض أعمال البر ، ويغلب على هذا القصر الأنيق الطراز العربى ، فجميع جدران حجراته مزينة بنقوش عربية جميلة ذات ألوان زاهية ، وسقوفه آية فى دقة الفن وبراعته وبجدرانه القيشانى بارتفاع نحو

المتزين ، ومن أجمل أبهائه قاعة المكتب الخاصة بصاحب القصر ، وللقصر حديقة صغيرة ولكنها منسقة ومبذول لها كل العناية ويسكن صاحبه الطابق العلوى من القصر ، ولايسمح بزيارة هذا القسم طبعا •

ماذا ترى فى إشبيلية

أقامت الحكومة الأسبانية باشبيلية سنة ١٩٢٩ معرضا أسبانيا أمريكيا ، وشيدت لهذا الغرض قصورا « سرايات » عديدة فخمة شامخة قائمة الى الآن بمتنزه ماريا لويزا ، وقد حولت تلك القصور الآن الى متاحف ومكتبات عامة ودور للقنصليات ، ومنها قنصلية الولايات المتحدة التى تحتل دارا فخمة على نهر الوادى الكبير ، ومتنزه ماريا لويزا جميل التنسيق واسع الأرجاء به الكثير من تماثيل الشعراء والفنانين وكبار القواد الحربيين ، ويوجد بالمدينة متنزهات وميادين كثيرة فسيحة لذا فقد جمعت اشبيلية بين القديم ، اذ احتفظت فى بعض أحيائها بالطابع القديم كما أنشئت الأحياء الجديدة الأنيقة بمبانيها وشوارعها وميادينها ومتنزهاتها العظيمة •

وباشبيلية البرج الذهبى ، وسراى البلدية ، وواجهتها مزخرفة زخرفة جميلة ، وأكثر من مستشفى ، وبها جامعة كبيرة لها تاريخ حافل قديم ومتاحف حوت أنفس وأجمل اللوحات والتماثيل لأعظم الفنانين ويرى الزائر لبعضها بعض

الرسامين ينقلون اللوحات القديمة التى بالمتحف نقلا أمينا يدل على مهارتهم وحذقهم .

الرقص الأسبانى الوطنى

عُرفت اشبيلية بأنها موطن الرقص الأسبانى الوطنى ، فلا يفوتك وأنت بها أن ترى هذا الرقص فى أحد المراقص أو المسارح ، ويدلك بواب الفندق على المكان الذى تشاهد فيه هذا الرقص الوطنى ، كذلك لا يفوتك مشاهدة حفلة من حفلات مصارعة الثيران باشبيلية .

الحفلات الدينية والأعياد

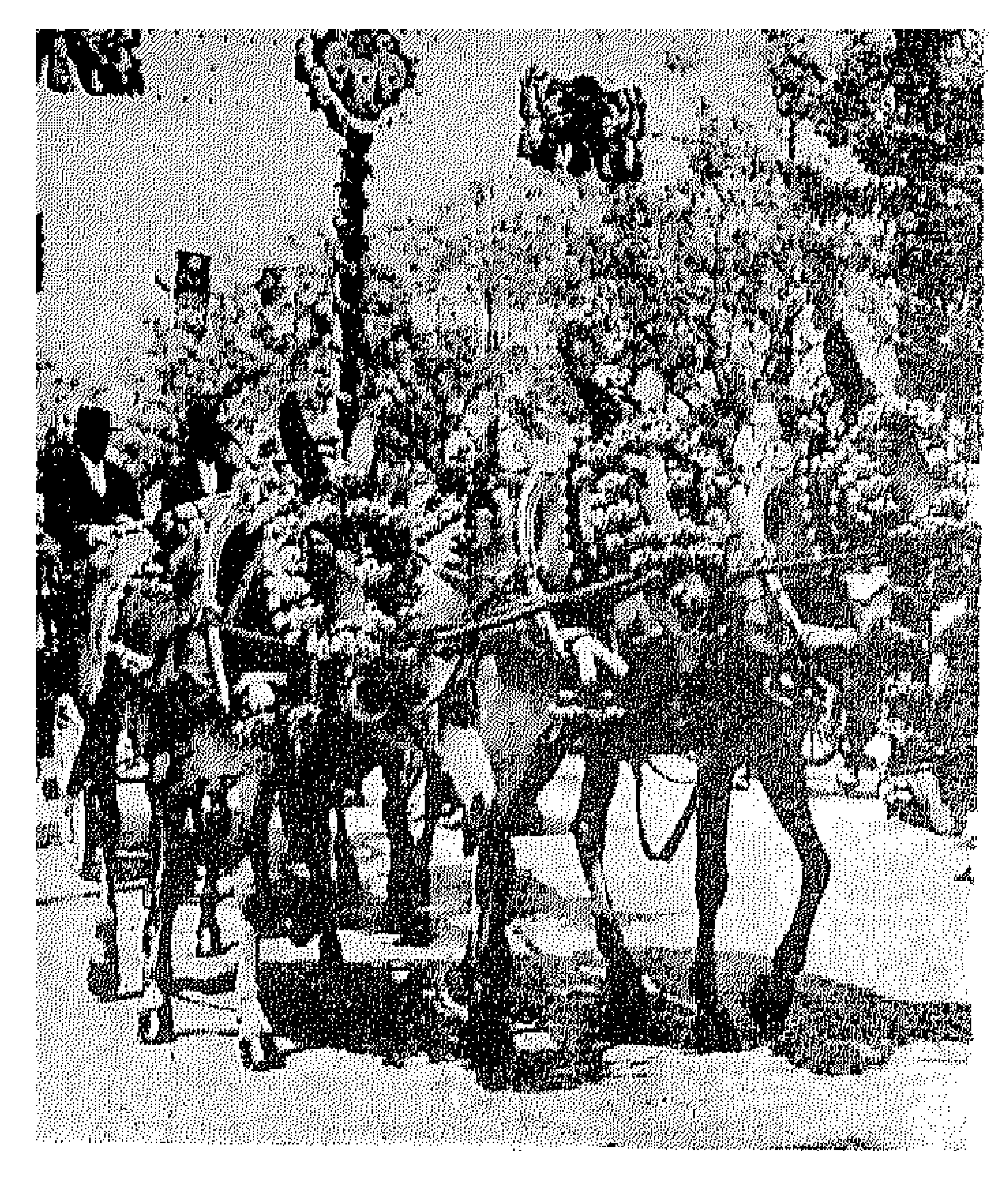
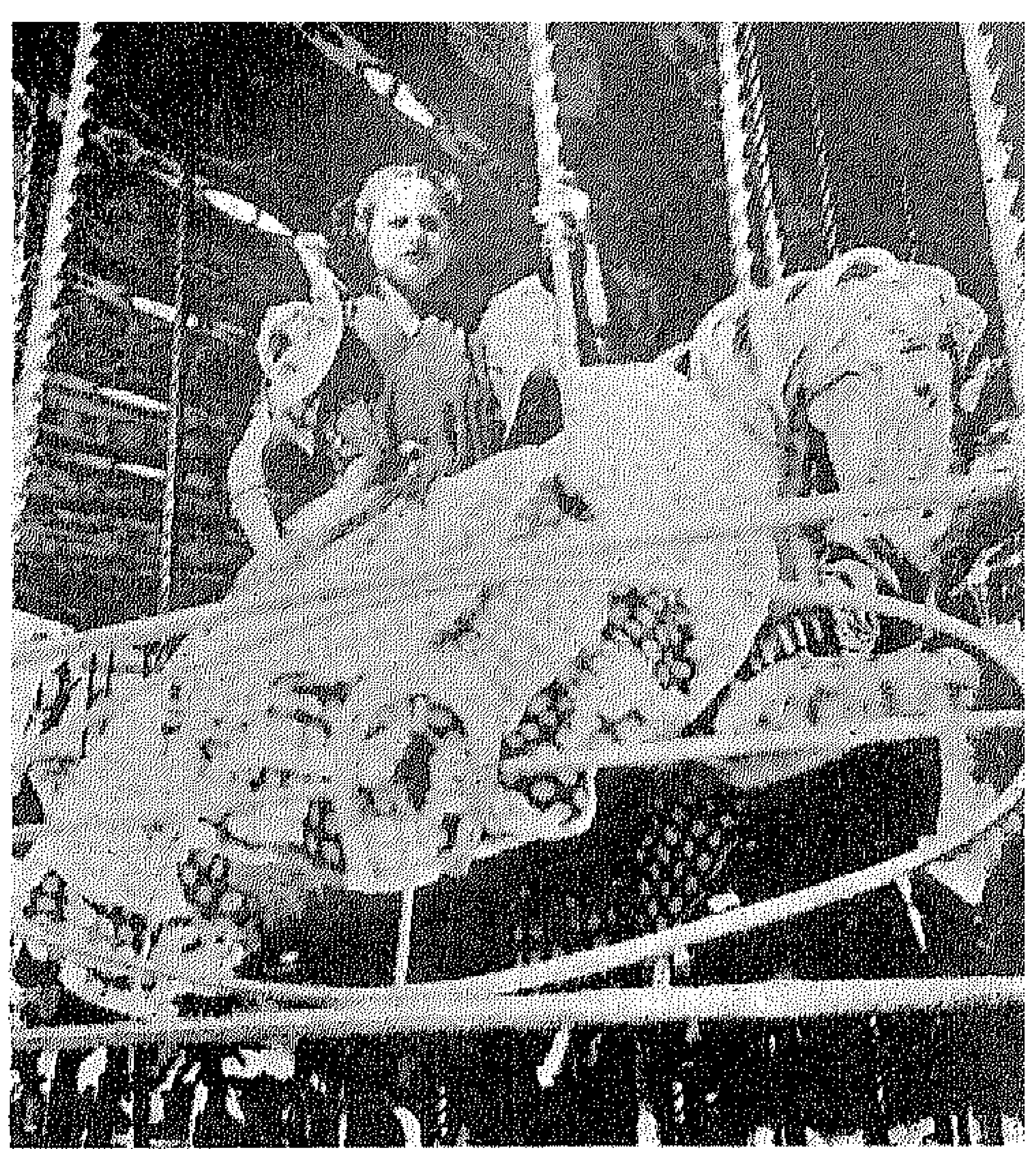
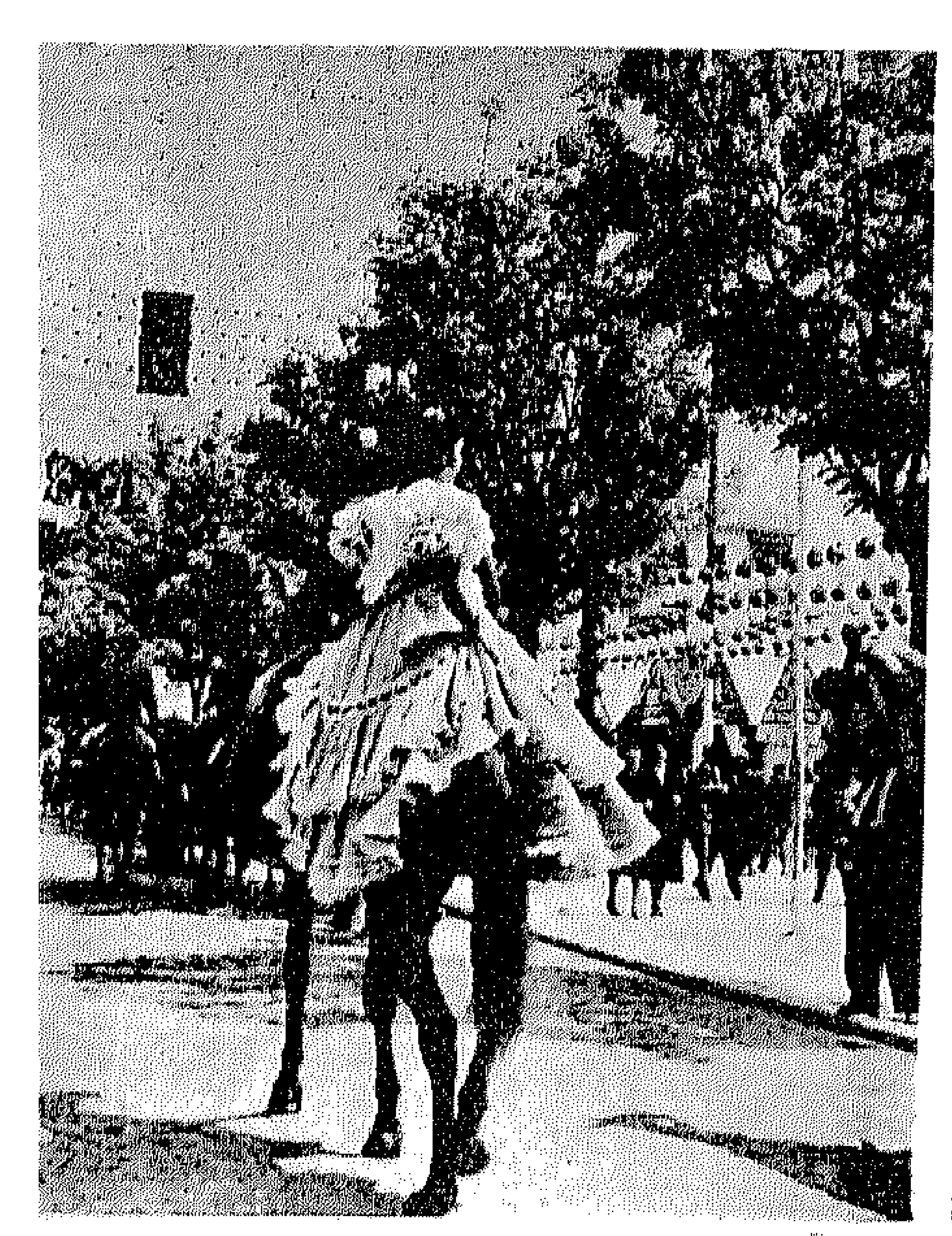
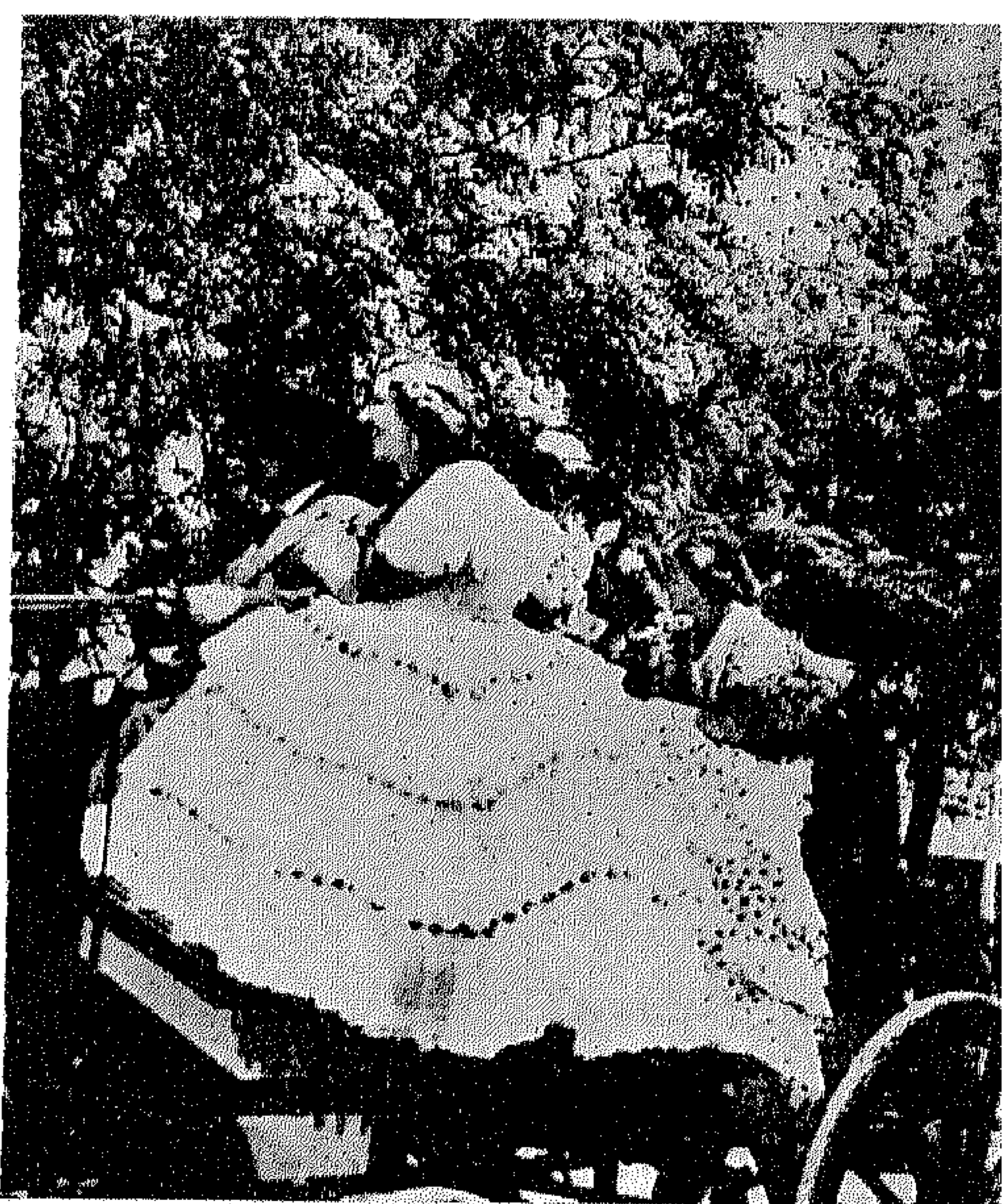
أسبانيا عموما ، واشبيلية خصوصا ، كثيرة الأعياد الدينية والقومية والاجتماعية ، ففى اشـــبيلية يحتفلون احتفالات عظيمة بعيد السعف وعيد القيامة ، وعيد الميلاد ، فتكتظ الكندرائية والكنائس المختلفة فى هذه المناسبات بالناس من رجال ونساء يرتلون الأناشيد ويقيمون الصلاة ، والجميع يرتدون أجمل حللهم وأفخرها ، ومن هذه الأعياد الدينية احتفال القوم بالأسبوع المقدس ، ولهذا العيد أهميته الفائقة ، لا من الناحية الدينية فحسب ، بل من نواح أخرى كثيرة ، اذ أنه مهرجان تاريخى ومعرض للفنون يشترك فى احيائه الشعب جميعه لا رجال الدين وحدهم ، ويسير الموكب العظيم الذى يشترك فيه الجميع من رجال الدين وقسس الكنائس

المختلفة وعامة الشعب ، تدفعهم جميعا الرغبة الصادقة فى تحية المسيح والعذراء ، ويحمل رجال الكنائس تماثيل وصورا للمسيح والعذراء ، من صنع أعظم الفنانين ، ويحيط بهم مئات ومئات من حملة الشموع المضاءة والأزهار الجميلة ، وتستمر هذه المواكب من يوم الثلاثاء المقدس الى يوم الجمعة الحزينة حيث تفتح فى منتصف الليل أبواب كنيسة سان لورنزو المضاءة بأنوار قوية ساطعة تكاد تعشى الأبصار . ويبدأ الموكب العظيم احتفالا بسير تمثال المسيح من الكنيسة الى الكتدرائية .

ومما لا ينسى فى هذه الاحتفالات ما يحف بالمواكب ويلازمها من الطبول والأبواق الموسيقية والأناشيد التى يرتلها الجميع فى خشوع ، وتسير النساء أمام الموكب بملابسهن السوداء حفاة الأقدام تقربا الى المسيح وزلفى .

وأما الأعياد القومية والاجتماعية فى اشبيلية فمنها عيد الحصاد الذى يحتفل به الزراع فى القرى المجاورة عندما ينضج القمح ويأخذون فى حصاده ويشاركهم أهل المدينة فى احتفالهم هذا .

وأما الفريا (Feria) فهى نوع من الموالد عظيم الشأن ويحج الى اشبيلية أثناء اقامة هذا المولد أو العيد عدد لا يحصى من مختلف أنحاء أسبانيا ، ويقام هذا المولد عادة فى شهر ابريل بعد الأسبوع المقدس بفترة قصيرة ، ويستمر أسبوعا أو أكثر ويرجع تاريخ هذا المهرجان الى سنة ١٨٤٨

فى موكب (الفريا) باشبيليه

حيث كانت تقام سوق للماشية فى اشبيلية كل سنة ، وينتهز
اذ ذاك التجار وأصحاب الحانات وغيرهم فرصة اقامة السوق
ليعرضوا سلعهم ويقيموا لهذا الغرض عششا وخياما مؤقتة
كما يعرض « الغجر » رقصاتهم ، وبمرور هذه السنين الطوال
تطور الأمر وقلت أهمية الماشية واتسع نطاق المولد والمهرجان
وأخذ يشترك فيه علية القوم والنبلاء فيقيمون الأكشاك
والأكواخ والخيم على جانبى الطرق ، ويستقبلون الأصدقاء
حيث يقدمون لهم المشروبات والأطعمة ، وتقام حفلات الرقص
الوطنى والغناء على نغم القيثار « الجيتار » Guitar ، كما
تقام حفلات مصارعة الثيران يوميا طوال أيام المولد ويؤتى
بأحسن عترات الثيران من مختلف مناطق أسبانيا التى اشتهرت
بتربية ثيران المصارعة ، ويشترك فى حفلات المصارعة عظماء
أبطالها المشهورين ، وبعد انتهاء حفلة المصارعة يسير موكب
كبير فى الشوارع يتألف من مركبات فخمة مزدانة بأبهى
زينة تجرها أصائل الجياد المطهمة ، وبالمركبات أجمل وأرشق
النساء بملابسهن الوطنية التى تمثل العصور الخالية ، ويضعن
عليهن الشيلان الفاخرة المزركشة والحلى الثمينة من الذهب
والماس ، فيمتزج جمال الخلق ورشاقة القد وحسن الهندام
وثمين الحلى فيبدو الموكب فى أحلى وأبهج ما يتصوره
الانسان ، وينتشر الخلق كيوم الحشر على جوانب الشوارع
والطرقات لمشاهدة هذا الموكب الفريد يوميا طوال مدة اقامة

المولد، وتزدحم اشبيلية ازدحاما لا يتصوره العقل، وتتضاعف أسعار كل شيء •

ومما انفردت به اشبيلية اليوم ما يرى بها من عربات من النوع المعروف (باللاندو) أو (الفيتون) يجرها من ٥ الى ٧ جياد وفى حالة الفيتون يتولى السيد بنفسه زمام القيادة ويجلس بالمقعد الخلفى اثنان من الأتباع بزى خاص فيعيد هذا المنظر الى الأذهان عهد العربات والجياد بمصر التى كان يقتنيها علية القوم •

يوجد حول اشبيلية وعلى مسافة بضعة كيلو مترات منها مطاعم ومقاه مختلفة يؤمها الناس لتناول الطعام أو احتساء المشروبات وتعاطى المرطبات ، ومن هذه المطاعم الخلوية مطعم يطل على حظيرة من الحظائر التى تترك بها الثيران أياما للراحة من عناء نقلها من مواطن نشأتها وتربيتها الى اشبيلية قبيل حفلات المصارعة • وفى خلال أيام (الفريا) Feria أو المولد تقام كل يوم حفلة مصارعة ، وينتهز الناس الفرصة فيذهبون لرؤية الثيران فى تلك الحظائر فى وداعة الثيران العادية طالما كان الناس بعيدين عن حظائرها • هذا بعض ما تراه فى اشبيلية وما اشتهرت به •

قرطبة Cordova

ترتب شركات السياحة فى اشبيلية رحلة بسيارات فاخرة « بولمان » الى قرطبة تستغرق يوما واحدا ، ويصاحب المسافرين دليل ، ولكن جرت العادة والتقاليد أن يقابل السيارات عند وصولها الى قرطبة أدلاء من هناك يقومون هم بالشرح للزوار ، كذلك يمكن السفر الى قرطبة من اشبيلية أو من غير اشبيلية من بلدان أسبانيا بالقطار ، ولكنى أحبذ كما قدمت زيارة الأندلس من عاصمته اشبيلية ، وأوصى بالاستفادة من رحلات شركات السياحة .

كانت قرطبة قبل حكم العرب من أهم بلاد أسبانيا وكانت عاصمة الأندلس مدة القوط ، ولكنها كانت فى عهد العرب من أهم بلاد العالم بل أهمها وأكثرها حضارة وثروة ومدنية ، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة ، وكان بها من القصور الفخمة والمساجد الكثيرة التى جاوزت الألفين والمكتبات العامة العديدة ما لا يوجد مثله فى كثرته وفخامته فى غيرها من الأقطار ، وكانت قصور الزهراء التى أقامها الخلفاء الأمويون خارج قرطبة مظهرا للعز والثروة والتنعم تحيط بها البساتين ، وتكثر بأرجائها الزهور والأشجار والرياحين . وقد فاقت قرطبة فى عظمتها ورفاهة أمرائها وسكانها ما عرفته بغداد فى أزهى عصورها ، ولم تتفوق قرطبة فى الناحية المادية والثروة فحسب ، بل ازدهرت بها العلوم

والفنون ازدهارا عظيما ، وكانت بحق زعيمة العالم اذ ذاك ومعلمته ، اليها يحج كبار العلماء وعظماء الفنانين من كل قطر ، فيلقون من الخلفاء بقرطبة كل ترحيب وتكريم ، وعنها ومنها تنتشر العلوم والفنون فى مختلف نواحى الأرض .

وصلت قرطبة الى أوج عظمتها وازدهارها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الثانى (٨٢٢—٨٥٢) والخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢—٩٦١) وظلت تحت الحكم العربى الى أن تغلب عليها وفتحها سانت فرديناند سنة ١٢٣٦ وسرعان ما تدهورت قرطبة واندثرت منشآت الرى العظيمة وأجدبت الأرض بعد ازدهارها ، وتغيرت الحال تغيرا واضحا ، وسبحان من له الدوام وقد هاجر كثيرون من عرب قرطبة بعد سقوطها الى غرناطة.

تحتفظ قرطبة الى الآن بطابعها العربى الذى يغلب على طراز مبانيها ، وبها أحياء برمتها عربية المظهر بها من المساكن ما يشبه فى هندسته المساكن العربية التى كانت معروفة عندنا أيضا فى القرن الماضى والتى يؤدى بابها الخارجى الى حوش مربع حوله المبانى ، ويرى المار بشوارع قرطبة الضيقة فى أحيائها المحتفظة بطابعها العربى حوش الدار أو فناءها وقد زين بأشجار ونخيل ، ومن العجب أن ترى على الجدران المحيطة بفناء الدار أصص الأزهار معلقة بعضها فوق بعض بنظام جميل ، ولمنظرها واختلاف ألوان أزهارها مظهر بهيج ترتاح اليه النفس ، ويعجب الانسان كيف تروى هذه الاصص بغير

أن تسقط قطرة ماء على الجدار فتشوب بقعة ما لونه الأبيض الناصع ، وترى فى وسط فناء البيت أكثر الأحيان فسقية من الرخام ينساب الماء بها كما ترى جدران الدهليز المؤدى الى فناء (حوش) البيت محلاة بارتفاع مترين بالقيشانى الجميل كثير الانتشار بالأندلس .

يبلغ سكان قرطبة اليوم ١٣٠ ألف نفس أى نحو ربع عدد سكانها فى عهد العرب .

أزال الأسبان الزهراء برمتها ، فلا أثر لها اليوم ، كما هدموا وخربوا عند استيلائهم على قرطبة جميع ما كان بها من المساجد والمكتبات ماعدا المسجد الجامع فقد أبقوا عليه .

أما الزهراء التى كانت مصيف الأمراء ، والتى عفى عليها الدهر ، فقد ذكر التاريخ عنها ما لا يكاد يصدقه المرء لولا تواتر الرواية فى كتب العرب وتوارد ما أثبته مؤرخوهم . ويقول هؤلاء المؤرخون أن قصور الزهراء فاقت أعظم وأفخم وأجمل وأبهى ما عرفه العالم اذ ذاك ، بما حوته القصور من أبهاء شاسعة ، وآلاف العمد الرخامية ، وما حليت به الجدران من الذهب والفضة ، وما زينها من أحجار نفيسة ، وقد اشترك فى اقامة تلك القصور وزخرفتها أمهر الصناع الذين استقدمهم الأمراء من عهد عبد الرحمن الثالث سنة ٩٣٦ م من أشهر مدن العالم ، وما أغدق عليهم من منح وعطايا تشجيعا لهم وحفزا لهممهم ، وقد نهج خلفاء عبد الرحمن نهجه حتى

بلغت الزهراء ما لم يعرف التاريخ له نظيرا . ويقال ان قاعة العرش أو قاعة الخلفاء بأحد قصور الزهراء كان لها ٣٢ بابا محلاة بالذهب الخالص والعـاج ، وعلى جوانبها عمد من البللور الجميل ، وكان سقف القاعة على اتساعها الشاسع من المرمر الشفاف مختلف الألوان ، لينفـذ منه ضوء الشمس فيضفى على المكان البهجة والعظمة والبهاء .

ويروى أن خدم القصور من الرجال بلغ ثلاثة عشر ألف عدا الجوارى الحسان اللاتى يكاد لا يحصى عددهن . وكان بحديقة الزهراء بركة كبيرة للماء لتربية الأسماك التى كانت تطعم باثنى عشر ألف رغيف من الخبز يوميا ، فكم يا ترى كان مقدار ما يلزم من الخبز لاطعام سـكان القصور من الجوارى والغلمان ؟ !! .

المسجد الجامع

وقد حوله الأسبان بعد استيلائهم على قرطبة الى كتدرائية ولم يهدموه كما هدموا جميع ما وجدوه بقرطبة من مساجد ومكتبات عامة وقصور وحصون .

شيد العرب بعد فتحهم قرطبة هذا المسجد على نصف أرض كنيسة كانت قائمة اذ ذاك ، وعوّضوا المسيحيين عنها بسخاء ، ولم يغتصبوا أرض الكنيسة بل أرضوهم بأن تركوا لهم النصف الثانى ، وأباحوا لهم اقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولما استدعى الأمر توسيع المسـجد فيما بعد لكثرة

الوافدين على قرطبة من جميع أنحاء البـلاد الاسلامية ، فاوض الخليفة عبد الرحمن الأول — أول الخلفاء الأمويين بالأندلس — النصارى سنة ٧٨٥ ميلادية ، واشترى منهم النصف الثانى من الكنيسة ، وأقطعهم أرضا وعوضهم عن كنيستهم بسخاء ، وتم توسيع المسجد فى عهود أكثر من خليفة ، فمنهم من وسع رقعته ، ومنهم من جمل البناء وجدده ، وقد بلغت مساحة المسجد أكثر من ٢٦ ألف متر مسطح ، وكان به نحو ١٢٠٠ من الأعمدة الرخامية الجميلة . وقدهدم زلزال منارة المسجد فأقام الخليفة عبد الرحمن الناصر المنارة القائمة الى الآن وذلك سنة ٩٥٨ م . وللمسجد عـدة أبواب ، وباب المنارة هو الباب الرئيسى تزينه قطع نحاسية صغيرة مثمنة الشكل يعلو بعضها البعض ، أما واجهة البناء المقام عليه هذا الباب الذى يبلغ ارتفاعه نحو العشرين مترا فمن الرخـام المنقوش بنقوش عربية دقيقة غاية الدقة .

أما المحراب فآية من آيات الفن والجمال ودقة الصناعة ، ولا غرابة فقد استعان الخلفـاء بأبرع الفنانين من مختلف الأقطار ، واستقدموا العمال المهرة من القسطنطينية وغيرها من الأقطار لتجميل القبلة بأجمل النقوش من قطع دقيقة من الرخام مختلف الألوان ، ومن الصدف والذهب البراق ، ومن محاسن هذه الصناعة أن ترى اذا ما نظرت اليها من ناحية اليمين غير ما تراه من ناحية اليسار .

أما عقد المحراب فقطعة واحدة من الرخام المجوف ، وعن

يمين ويسار القبلة حجرتان ، ويرى الانسان الكتابات الكوفية والعربية والآيات القرآنية الكريمة فى كل مكان ، وبالمسجد أكثر من محراب ، ولكن أجملها المحراب الذى بنى أول الأمر ٠

أزال الأسبان قبة المسجد العظيمة الشامخة وأقاموا مكانها كنيستهم التى يراها الانسان فى وسط المسجد تقريبا ، وأزالوا لهذا الغرض نحو ١٦٠ عامودا من أعمدة المسجد القديمة وعدلوا منارته العظيمة التى لا تقل فى فخامتها عن منارة كتدرائية اشبيلية (الجيرالدا) اذ تبلغ نحو ١٢ مترا فى مثلها ، وارتفاعها نحو ٩٣ مترا ، وقد وضع الأسبان بهذه المئذنة الأجراس الضخمة ٠

وقد شوهت الكنيسة التى أقامها الأسبان وسط هذا المسجد العظيم جماله وتناسقه ، وشتان بين فخامة بناء المسجد وجمال جدرانه وأبوابه ونقوش سقوفه ودقة زخرفة محرابه وبين مستوى بناء الكنيسة ، وقد عبر الملك شارل الخامس عند زيارته لقرطبة سنة ١٥٢٦ عن أسفه لذلك اذ قال : لقد بنيتم الكتدرائية وكان يمكن أن تشيد فى أى مكان آخر وأوديتم بجمال بناء لا مثيل له فى العالم ٠

وقد كان بالمسجد ٢٨٦ نجفة يتدلى منها ٧٤٢٥ قنديلا ، عدا الكثير من « الشمعدانات » الكبيرة الضخمة المصنوعة من الفضة الخالصة اندثر أكثرها ، ونهب الفرنسيون بعضها



جانب من المحراب بمسجد قرطبه الكبير

عند اقتحامهم أرض أسبانيا واحتلالها فى عهد نابليون

ويؤدى باب النخيل فى شمال المسجد الى « حوش » كبير مغروسه به أشجار البرتقال والنارنج والنخيل فى صفوف منتظمة وعلى أبعاد متساوية كما لو كانت استمرارا لأعمدة المسجد نفسه وفى هذا الحوش الذى تبلغ مساحته نحو ثلث مساحة المسجد خمس نافورات للمياه مما يضفى عليه الطابع الشرقى .

وفى مواجهة المسجد توجد القنطرة التى بناها الرومان من أقدم العصور ، وقد جددها العرب مدة حكمهم للبلاد ، ثم رممها الأسبان بعد ذلك ، وتنتهى من الجهة الشرقية بقلعة بناها العرب لها برجان عظيمان . ومن الطرف الآخر من القنطرة يرى المسجد أو الكتدرائية الآن ومبان مهدمة كانت أيام العرب طواحين مائية ، كما يرى تمثال القديس روفائيل مقاما على عامود عال .

ويوجد بقرطبة متحف يحوى الكثير من آثار الرومان والعرب والأسبان من أسلحة وتماثيل ولوحات جميلة من صنع مختلف الفنانين .

وبقرطبة كما بغيرها من المدن الأسبانية ساحة كبيرة لمصارعة الثيران ، وفى هذه الساحة صرع ثور كبير شديد المراس المصارع مانوليت عام ١٩٤٧ وقتله ، وقد دفن مانوليت فى قرطبة ، وقبره الآن من أهم المعالم التى يحج اليها الزوار .

قدرنا — أيها القارىء العزيز — أن تزور قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس من اشبيلية فلنعد الآن الى اشبيلية لنرى بعض معالمها الأثرية الهامة ، ونشهد حفلة مصارعة الثيران والرقص الوطنى فى أحد المسارح ، ثم نستأنف زيارة ناحية أخرى من الأندلس .

قادس وجيريز Cadiz & Jerez

من اشبيلية تستطيع زيادة قادس وجيريز فى يوم واحد تعود فى مسائه الى اشبيلية ، وخير وسيلة لذلك هى الذهاب فى سيارة من سيارات السياحة التى تسيرها شركة تخصصت فى هذا — كما أسلفنا .

كانت قادس من قبل جزيرة يحيط بها الماء من جميع جهاتها ، ولكنها اليوم شبه جزيرة ، اذ أقيم جسر يوصل اليها ، ولعل قادس من أقدم مدن أوربا التى استمرت عامرة منذ أسسها الفينيقيون حوالى سنة ١١٠٠ ق.م الى اليوم من غير أن تندثر وتصير أثرا تاريخيا يقرأ عنه القارئون ، وأطلالا يتحدث عنها التاريخ والمؤرخون . وقد وقعت قادس تحت حكم الفاتحين من القرطاجينيين والرومان الى نابليون ، وخضعت للنورماندنيين وللعرب ، الى أن استولى عليها سنة ١٢٦٢ الفونسو الشهير بالحكيم ، وكانت عبارة عن خرائب مهدمة أنهكتها الحروب المتوالية قرونا عدة فأعاد تعميرها واصلاح ما خربته الحروب .

يبلغ عدد سكان قادس الآن أكثر من ٩٠٠٠٠ نسمة ، وجوها معتدل طول السنة وشتاؤها غير شديد البرودة ، وهى ميناء تؤمه السفن من مختلف الموانى ، وبها شوارع واسعة على حافتيها مساكن جميلة ناصعة البياض تعلوها سماء صافية الزرقة ويكتنفها بحر زمردى اللون من كل ناحية ، وبقادس المتنزهات الجميلة والميادين الفسيحة ، كما أن بها أيضا بعض الأحياء التى احتفظت بطابعها القديم ، وكذلك يوجد بالقرب من المدينة حمامات بحرية مما يرغّب السائحين فى زيارة قادس صيفا أيضا • وفى قادس كتدرائية بنيت فى القرن السادس عشر ، أما كنيسة سانت كروز فيرجع عهدها الى القرن السابع وقد أعيد ترميمها مرات على توالى القرون والأحقاب • وفى المدينة متحف به مجموعة من اللوحات الجميلة وبعض التحف الأخرى •

يمر الركب عند الذهاب الى قادس أو فى العودة على بلدة جيريز ، وقد تخصصت فى صناعة الأنبذة ، وأشهرها «الشرى» Sherry والكنياك ، وترحب مصانع النبيذ بزيارة أفواج السائحين اياها ، وتخصص بعض رجالها لمرافقة الزوار والطواف بهم فى أرجاء المصنع وزيارة مختلف أقسامه ومشاهدة مراحل صنع الأنبذة المختلفة من عصير العنب الذى يزرع بكثرة بالقرب من جيريز ، وفى آخر المطاف بالمصنع يقدم الى الزائرين بعض أنواع النبيذ المختلفة ليتذوقوها ، ويقدم النبيذ عادة بتدرج الى أن يقدم آخر الأمر أجودها صنفا

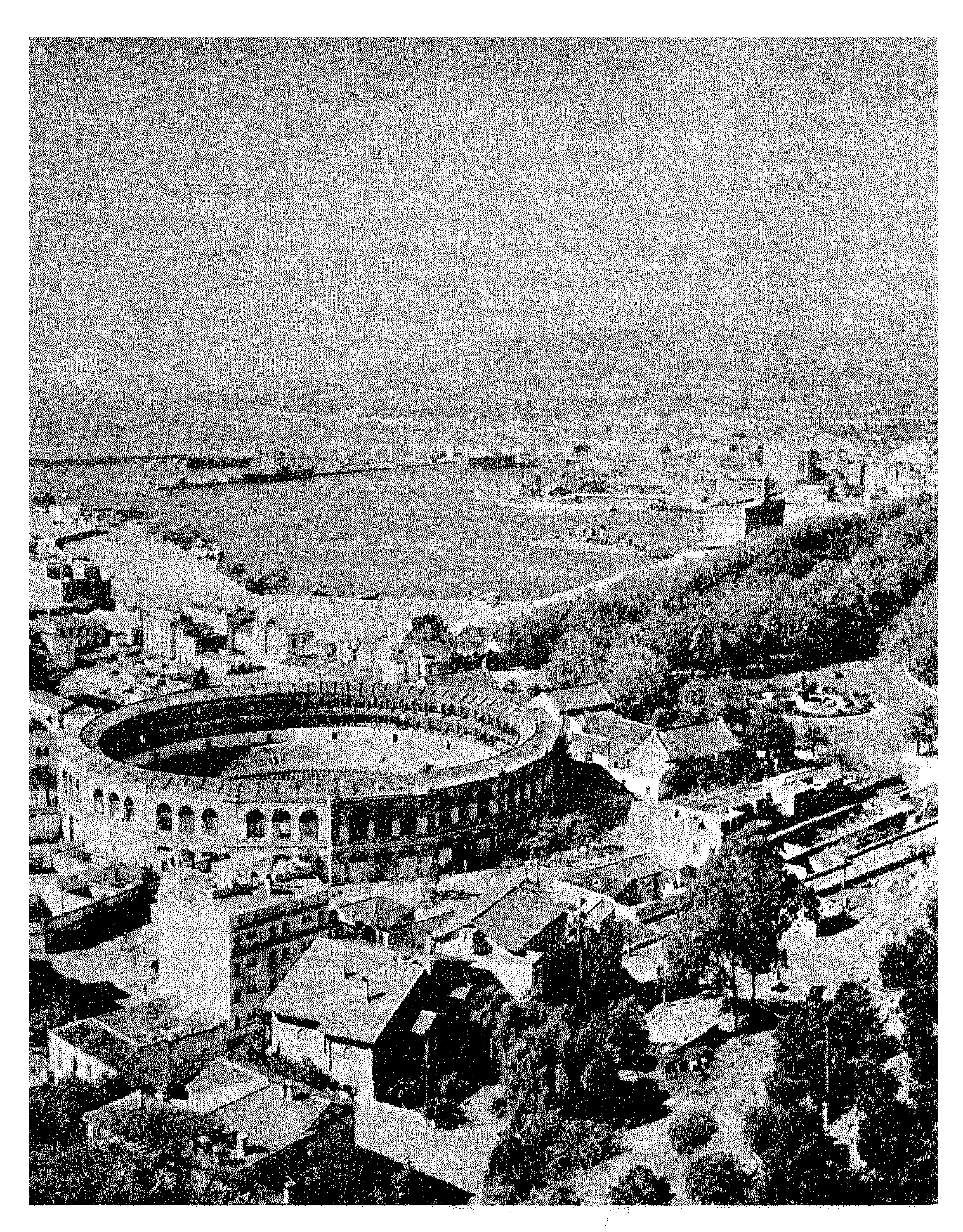
وأغلاها ثمنا ، ويحفظ النبيذ لكى يعتق فى براميل ضخمة يقال ان خشبها يستورد من أمريكا من نوع خاص من الأشجار ، وأهم شيء فى جيريز هو صناعة الأنبذة التى تدر على أهلها أرباحا وفيرة ، لذا فهى من أغنى بلاد أسبانيا ، وشوارعها مزدانة بأشجار البرتقال والنخيل .

من جيريز نعود الى اشبيلية لنستأنف زيارة بعض معالمها وأحيائها ثم لنرحل منها بعد ذلك الى ناحية أخرى من الأندلس .

ملقة Malaga

اذا عولنا على ترك اشبيلية بعد الاقامة بها أياما ، وما زرناه بها من معالم ومتاحف وكنائس وملاه ، وما قصدنا اليه منها من بلاد ومدن ، واجتزنا بسيارة السياحة من ريف جميل ، يحسن أن نذهب بعدئذ الى ملقة للاستمتاع بشاطىء البحر وللراحة والاستجمام بها بعض الوقت لاستئناف زيارة مدن أسبانيا الأثرية ، اذ لا يزال أمامنا غرناطة التى خلف بها العرب الحمراء وقصرها المنيف .

تبعد ملقة عن اشبيلية نحو ٢٠٠ كيلو متر ويمكن الوصول اليها بالقطار ، ويوجد قطار سريع يسافر ثلاث مرات كل أسبوع ويقطع المسافة بين البلدين فى نحو أربع ساعات . أما القطار العادى الذى يسافر يوميا فيقطعها فى ضعفه هذه المدة .



شاطىء البحر وميدان مصارعة الثيران بملقة

ملقة عروس بلاد البحر الأسبانية ، وهى مشتى جميل لاعتدال جوها ولذا يؤمها الكثير من البريطانيين والأمريكان وأعظم فنادقها فندق الميرامار "Miramar Hotel" المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ومن شرفات حجراته الواسعة يستمتع النزيل بمنظر البحر فى مكان هادىء جميل ، كما يوجد بالمدينة وبالبلاد الصغيرة المجاورة لها عدد من الفنادق المتوسطة والصغيرة والمساكن التى تؤجر الحجرات المفروشة .

تمتاز ملقة بموقعها بين البحر والجبل الذى يحتضنها ويتيه بما عليه من بيوت أنيقة ، وما يكسوه من خضرة ويزينه من أشجار باسقة ، ومتنزهات جميلة التنسيق ، كما توجد متنزهات أخرى فى عدة مواقع بالمدينة وعلى شاطىء البحر ، بها أشجار النخيل وأشجار الزينة دائمة الخضرة والأزهار اليانعة .

وملقة بلدة تجارية معروفة لوقوعها على البحر ، كما أن اعتدال مناخها يسّر زراعة البرتقال والعنب والتين والزيتون بالأراضى المجاورة لها ، ونبيذ ملقة أشهر من أن يذكر وقد انتشر فى جميع أنحاء المعمورة وذاع اسمه ، كما تكثر فى ملقة الأسماك بأنواعها ، ويفتنّ أهل البلاد فى عرضها وطبخها كما هى عادة سكان الشاطىء ، ومن المسلى لمن يستيقظ مبكرا أن يرى الصيادين فى الصباح الباكر وهم يخرجون شباكهم مثقلة بمختلف الأسماك ، كما يرى الانسان على الشاطىء شباكا كبيرة جدا مفروشة على الأرض لتجفيفها أو تصليحها ويشتغل فى عملية الاصلاح عدد كبير من الصيادين .

وفى أعلى الجبل المطل على ميناء ملقة تقوم القلعة التى شيدها العرب لتسيطر على الموقف وقد تهدمت ، ولكن الجزء الباقى منها يدل على أهميتها وحسن اختيار موقعها • ومن القلعة ترى المدينة والبحر وبناء مصارعة الثيران •

أما الكتدرائية فقد شيدت مكان مسجد فى سنة ١٥٣٨ على طراز عصر النهضة ولكنها رممت وأصلحت فى القرن الثامن عشر ، وقد أودى هذا الاصلاح بجمالها • وبالقرب من الكتدرائية يرى قصر المطران وقد تخرب أثناء الحرب الأهلية ثم أعيد اصلاحه أخيرا •

وليس بملقة من الآثار القديمة ما يستحق الذكر غير القلعة • ولكن ملقة من أهم مدن الأندلس ويحسن زيارتها وقضاء بعض الوقت بها للراحة والاستجمام ، ثم استئناف الطواف منها الى باقى أرجاء الأندلس • ومن ملقة تسافر الى غرناطة لتزور الحمراء — أعظم آثار العرب بتلك البلاد •

ويرى المسافر بالسيارة من ملقة الى غرناطة أخصب الأراضى الزراعية المغروسة بأشجار الزيتون والكروم وأشجار الفاكهة الأخرى والزراعات المختلفة من قمح وبنجر ودخان وخضر ، ويكثر الماء الذى تنساب جداوله بغزارة فى هذه المناطق التى يقطعها نهرا دارو وشنيل ، كما يرى المسافر جبال سيرانفادا عند اقترابه من غرناطة •

غرناطة Grenade

تقع مدينة غرناطة فى الشمال الغربى لجبل شلير أحد حلقات جبال سيرانفادا الشامخة ، وعدد سكانها الآن حوالى ١٦٠٫٠٠٠ نفس . وقد كانت غرناطة آخر ما احتفظ به العرب من مدن أسبانيا ، لذا تضاعف عدد سكانها قبيل سقوطها فى يد الأسبان ، اذ كان يهاجر اليها العرب الذين يستولى الأسبان على ما يحتلون من مدن أسبانية حتى بلغ عدد سكان غرناطة مدة بنى الأحمر نصف مليون نفس .

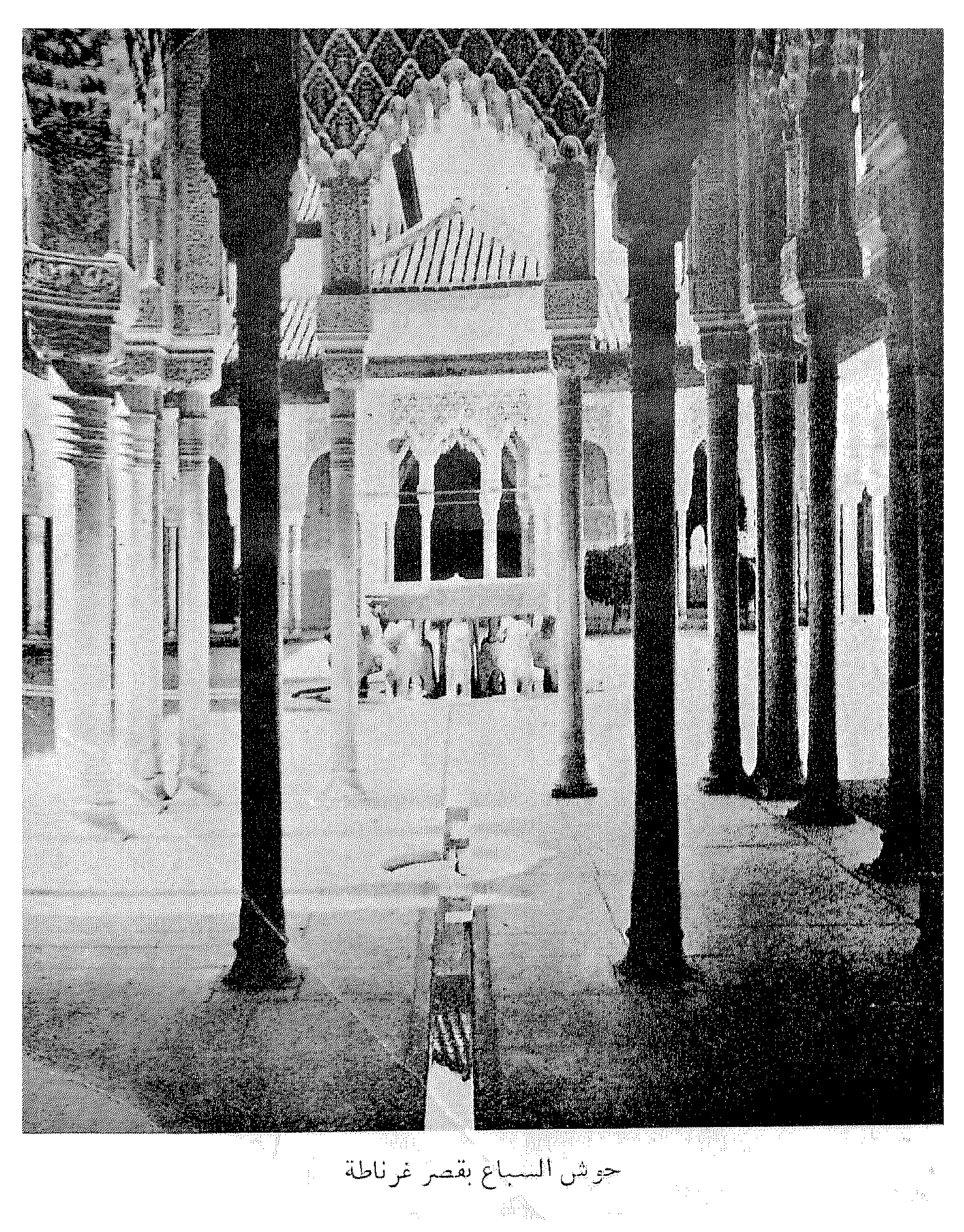
يكثر بغرناطة وفيما حولها الماء ، اذ يقطعها نهر دارو الذى ساقه اليها العرب من جبال سيرانفادا كما يمر بجوارها نهر شنتيل الذى يروى المناطق المجاورة لغرناطة بواسطة الترع التى حفرها العرب وخلقوا بانشائها نظاما محكما للرى لا يزال باقيا الى اليوم يؤدى الغرض من انشائه ، مما أدى الى كثرة الغابات ونضارة المزارع وتحسن الجو عنه فى غيرها من بلاد الأندلس لكثرة ما بمنطقة غرناطة من الأنهر والترع والجداول التى يوفرها ما يذوب من قمم جبال السيرانفادا فيغذى الأنهر والقنوات . وقد استغل العرب هذه المزايا الطبيعية أحسن استغلال .

احتفظ العرب بغرناطة الى سنة ١٤٩٢ حيث انتزعهامنهم فرديناند وايزابلا بعد دفاع مجيد سجله التاريخ .

تجمع مدينة غرناطة اليوم بين القديم والحديث ، فيمثل القديم بعض أحياء منها شوارعها ضيقة وبها المساكن القديمة على طراز القرون الغابرة كما يوجد قصر الحمراء والقلعة ، وسنذكر وصف ذلك فيما بعد ، ويمثل العمارة الحديثة أحياء أخرى بها الشوارع المتسعة والمبانى الجديدة الفخمة من دور للمصارف المالية ومصالح الحكومة والمستشفيات والمدارس والمحلات التجارية ويمر بهذه الشوارع المتسعة الترام والسيارات الكبيرة وبها جميع مظاهر المدنية الحديثة .

ويقصد الزوار غرناطة لمشاهدة آثار العرب بها ، وأهمها قصر الحمراء الذى كان قلعة حربية ومقرا للحكم وقصرا لسكنى الأمراء ، وقد بدأت عمارة هذه المنشآت العظيمة تدريجيا وفى عهد أمراء عديدين منذ حكم محمد الأول (١٢٣٢ — ١٢٧٢) الذى اختار هذا الموقع الجبلى المنيع ليكون مقرا له ، وقد كان شعار هذا الأمير : (لا غالب الا الله) التى ترى مكتوبة بكثرة واضحة على جدران القصر وفى كل مكان .

وقد بدأ محمد الأول باقامة بعض المنشآت ثم جاء محمد الثانى (١٢٧٢ — ١٣٠٢) فأكمل ما بدأ والده وأضاف الكثير من المبانى والمنشآت ، ثم محمد الثالث الذى استمر فى التعمير وشيد مسجد الحمراء سنة ١٣٠٢ — ١٣٠٩ ، ثم جاء بعد هؤلاء يوسف الأول (سنة ١٣٣٣ — ١٣٥٤) وقد اتسع ملكه وازدهر عهده وعظمت موارده فشيد القصر ومقر العرش



حوش السباع بقصر غرناطة

حيث كان يجلس للحكم واستقبال الوفود والسفراء كما أقام الأسوار العظيمة حول الموقع بأسره وشيد ٢٣ برجا عاليا للدفاع • وأتم محمد الخامس (١٣٥٤ — ١٣٩١) بعض المنشآت الهامة ومنها حوش الريحان وحوش السباع ومن هذا القصر المنيف يؤدي طريق جميل على جانبيه أشجار السرو ونباتات الورد الى (جنة الريف) •

بعد هذا البيان الموجز عن تاريخ الحمراء وقصرها نصف بايجاز أهم نواحى القصر وحديقته الغناء :

قصر الحمراء

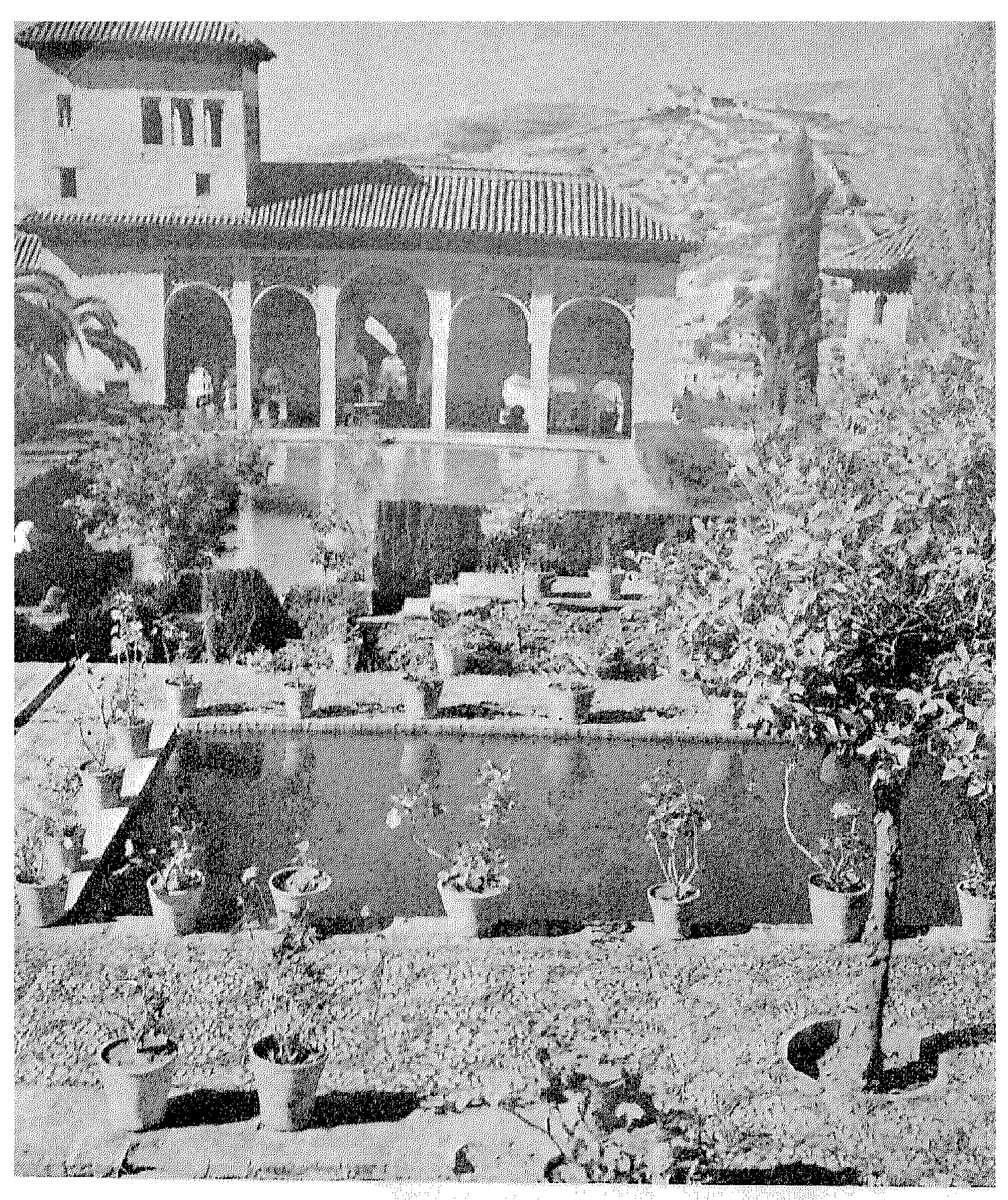
وقد بناه أمراء العـــرب وهو يتفق فى عظمته وفخامته واتساع رقعته مع عظمة من بناه ، وقد احتفظ برونقه وبهائه رغم القرون التى مرت والسنوات والأحقاب التى توالت ، وتبلغ المساحة المقام عليها قصر الحمراء وجنة الريف على قمة الجبل نحو ٣٠ فدانا قد أحيطت جميعها بأسوار ضخمة أقيم عليها ٢٣ برجا أهمها القصبة أو القلعة •

ويشاهد الزائر لقصر الحمراء مسجدا صغيرا أنيقا جدا به نقوش بديعة دقيقة — وكتابات عربية جميلـــة باقية على ما كانت عليه منذ أنشأ المسجد محمد الثانى ، كما قدمنا ، وقد حوله الأسبان الى كنيسة طبعا ، ويقال ان محراب هذا المسجد كان مرصعا بالأحجار الكريمة علاوة على الذهب والفضة والعاج والأبانوس •

ويحوى قصر الحمراء قاعة الحكم ، وحوش السباع ، وحوش الريحان ، وقاعة السفراء حيث كان يستقبل الأمراء السفراء ويجلسون للحكم ، ومسجد الملك والحمام الملكى وقاعة ابن سراج وقاعة الأختين وكانت هذه الأبنية متصلة بقصر الحرم الذى أمر فرديناند وايزابلا بهدمه عند سقوط غرناطـة فى أيديهم وأمروا فأقيم مكانه قصر على الطراز القوطى ، ولكن القصر لم يتم فى عهد فرديناند ، كما أن شارل الخامس أمر عند زيارته لغرناطة سنة ١٥٢٦ بهدم بعض مبانى قصر الحمراء ليقيم لنفسه قصرا ، وقد أهملت المبانى العربية ردحا من الزمن ثم عاد ملوك الأسبان وعنوا بها كل العناية وخصصوا المال اللازم لصيانتها حيث ترى اليوم بحالة جيدة جدا .

وقاعة الحكم كبيرة متسعة مربعة الشكل تزيد مساحتها على ٢٢٠ مترا مربعا ، وسقفها عال لا يقل ارتفاعه عن عشرين مترا ، وجدرانها مزينة بنقوش جصية آية فى الجمال والدقة ، وبها كتابات عربية بخط جميل منها « عز مولانا أبى عبد الله » « لا غالب الا الله » .

أما حوش السباع وهو من أهم وأعظم معالم قصر الحمراء لاتساعه (٢٨×١٥ مترا) وجمـال ما يحيط به من عقود « بواكى » مقامة على أعمدة رشيقة جميلة من المرمر الفاخر أقيمت مثنى كل عامودين متجاوران أو ثلاث أو أربع متجاورة



حديقة الحريم بقصر غرناطة

بشكل هندسى بديع يرتاح النظر اليه ويعجب به الرائى ، كما يعجب بما يزين العقود وجوانبها وأسقفها من نقوش جصية مذهبة •

وفى وسط هذا الحوش فسقية جميلة يقوم عليها اثنا عشر سبعا من الرخام الأزرق ، ومن هنا جاءت تسمية الحوش وينساب الماء من أفواه السباع ويسير فى مجار مفتوحة الى أحواض أربعة فى زوايا الحوش •

يفتح على حوش السباع بابان متقابلان لحجرتين ، يطلق على احداهما حجرة بنى سراج وكانوا من الوزراء وفى وسط القاعة فسقية صغيرة من الرخام ، والقاعة مربعة وليست كبيرة الاتساع ولكن نقوشها من المقرنصات بديعة الصنع جميلة التنسيق كما أن سقفها كله من المقرنصات أيضا وبها مناور جميلة جدا تحملها « كوابيل » من المقرنصات الجميلة •

وفى مقابل هذه القاعة قاعة أخرى فى نحو اتساعها تسمى قاعة الأختين ولا تختلف عنها فى زخرفتها وجمال نقوشها ودقة ما بها من المقرنصات ومن داخل قاعة الأختين قاعة أخرى تسمى قاعة الملكات تشرف على بستان جميل التنسيق •

ومن أهم ما بقصر الحمراء حوش الريحان وهو متسع اذ يبلغ طوله نحو ٣٦ مترا وعرضه ٢٣ مترا وهو كحوش السباع غير مسقوف وأرضيته مفروشة بالرخام الجيد ، وفى وسط هذا الحوش بركة للماء من الرخام أيضا طولها ٣٣ مترا

وعرضها سبعة أمتار ونصف المتر • وعمقها متر ونصف المتر مملوءة بالماء النظيف الرائق الشفاف ، ويحيط بها سياج من نبات من الفصيلة الريحانية مشذب بنظام دقيق يرتفع نحو متر وربع متر من الأرض ، وذلك طبقا لما كانت عليه الحال أيام أمراء العرب • وعلى جانب حوش الريحان صفان من أعمدة المرمر على بعد قليل من الحائط التى تقوم عليها وعلى العمد قباب صغيرة هى آية فى الجمال والتناسق والذوق السليم •

أما قاعة السفراء التى كان يجلس الأمراء فيها للحكم واقامة العدل واستقبال الضيوف والسـفراء فأفخم قاعات القصر ، وقد بناها أبو الحجاج يوسف وهى مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ١١ مترا وارتفاع حوائطها نحو ١٨ مترا ولها قبة بديعة من الخشب المشغول والمنقوش بالذهب البراق بنقوش جميلة جدا ودقيقة ، وبالقاعة الكثير من المناور وبعض الشبابيك التى لها شرفات جميلة مما يضفى على القاعة الطابع الشرقى وعظمة الملك ، كما أن الجدران مزينة بأجمل وأدق النقوش ، وللقاعة وزرة بارتفاع مترين أو أكثر من القيشانى الجميل دقيق الصنع ويعلوه كتابات عربية وآيات قرآنية ، أما الكتابات فأكثرها دعاء للأمير أبى الحجـاج ، مثل (النصر المكين ، والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين) و (عز ونصر لمولانا الملك العادل المجاهد أبى الحجاج) •



جنـــة الريف

وقبل أن نغادر قصر الحمراء نذكر الحمام الملكى وهو على النظام الذى كان معروفا بمصر الى أوائل هذا القرن فى قصور الأمراء والسراة ، اذ به أولا غرفة متسعة فيها مسطبتان من الرخام متقابلتان وفى الوسط « فسقية » وحولها أعمدة تحمل سقفا يحيط به بعض الشرفات فى الطابق العلوى ، ويقال ان الغوانى الحسان كن يعزفن الموسيقى من هناك والملك يستحم ، ومن داخل هذه القاعة الحمام وعليه قبة بها الفتحات المعروفة بمصر التى كانت تغطى بزجاج يطلق عليه اسم القمريات ، وقد رأينا مثل هذا فى بيوتنا فى عهد الآباء والأجداد ، وبالحمام حوضان يصل اليهما الماء بتدبير محكم .

ومن قصر الحمراء ينتقل الزائر الى جنة الريف ، وهو القصر الصيفى لأمراء العرب ، اذ يقوم وسط بستان واسع الأرجاء يختلف مستواه اذ يعلو بعض أجزائه بعضا ، فينزل الانسان الى الجزء الأسفل بسلم رخامى وسط المروج اليانعة وتكثر بجنة الريف غدران الماء المتدفق من أعالى الجبال . فيسمع لتدفقها خرير موسيقى جميل ، ولكثرة توافر الماء المتدفق أنشئت بحيرات عديدة من الرخام على جوانبها نافورات يتدفق منها الماء بشدة ويرتفع على شكل قوس ثم يصب فى البحيرة حتى اذا وقعت على هذا الماء المتدفق أشعة الشمس الساطعة رأيت أقواس قزح بديعة كأنها تنصب فى بحيرات الماء . وبالحديقة جملة « أكشاك » ومظلات منشورة برشاقة

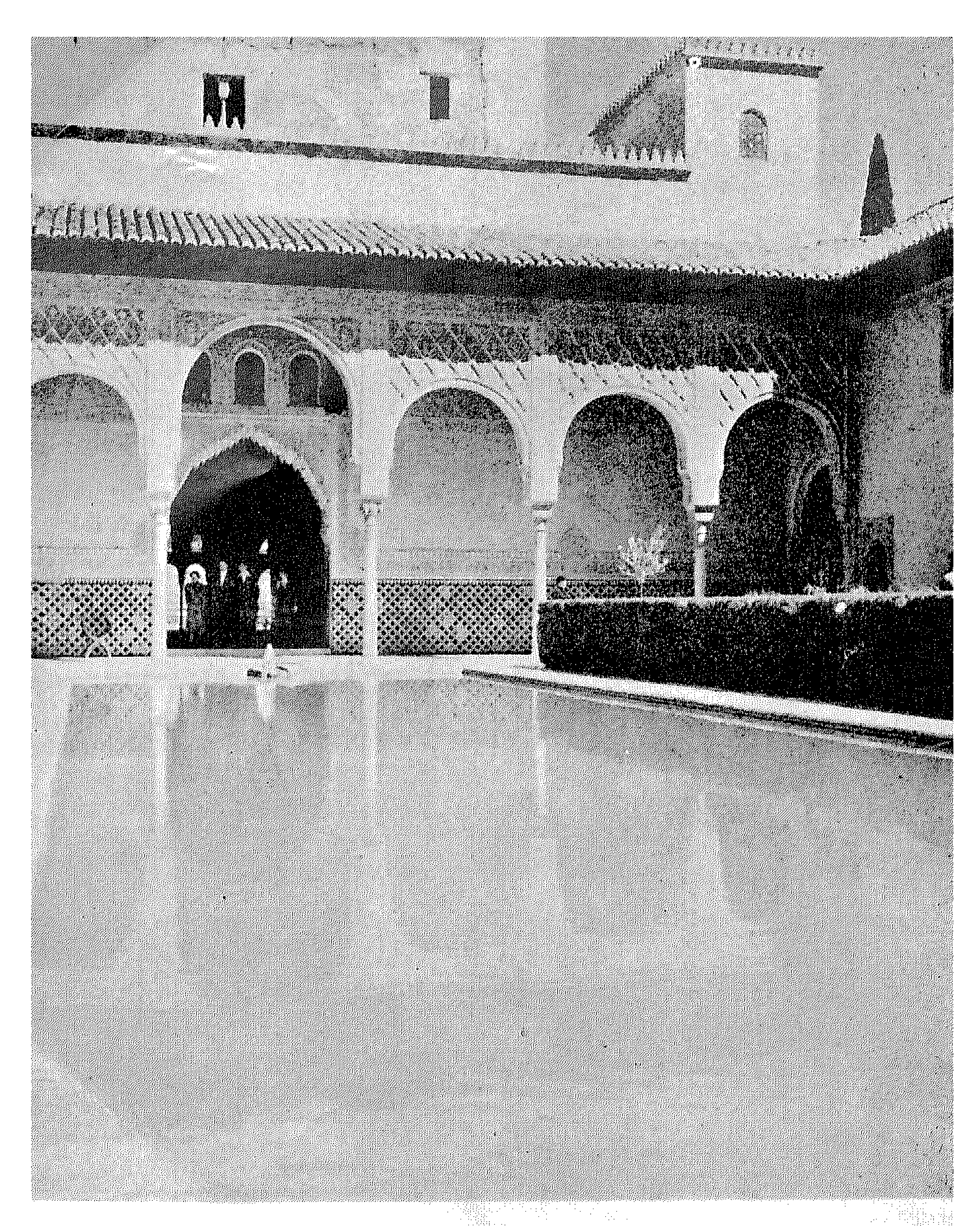
بين أشجار البرتقال والسرو والريحـان وشجيرات الزينة اليانعة ، عدا ايوان كبير بناحية من نواحى الحديقة • كما أن بأحد أركان البستان مسجدا صغيرا عبارة عن قاعة واحدة يصعد اليها ببعض الدرج وله محراب آية فى جماله ودقة نقوشه كما أن فى ناحية أخرى من البسـتان قصر الحرم • ويوجد بالحديقة شجرة أرز من عهد أمراء العرب اذ يقال انها مغروسة من سنة ١٤٠٠ م ، أى قبل سقوط غرناطة بنحو ٩٢ سنة أو قرن من الزمان •

كما أن لجنة الريف مدخلا من الشارع مقاما عليه باب كبير بناه ملوك العرب ، وعلى جانبى الباب كرة كبيرة من الحجر تشبه الرمان •

مما يلفت نظر الزائر لجنة الريف نضارة الأشجار وشدة العناية بكل ما يراه الانسان هناك • ويقال ان محافظ المدينة كثيرا ما يقيم الولائم الرسمية وحفلات الشاى فى جنة الريف، ولا عجب فان موقعها وجمالها يضفى على الحفـلة بهجة وروعـة •

الكتدرائية

أسـلفنا لك أن أسبانيا عموما مكتظـة بالكتدرائيات والكنائس ، وأنه لا تكاد تخلو قرية صـغيرة من أكثر من كنيسة ، لذا يوجد بغرناطة كما يوجد بغيرها من مدن أسبانيا



حوش الريحان بقصر غرناطة

الهامة كتدرائية أو كنيسة جامعة وعدة كنائس أخرى ، وأهم ما يذكر عن كتدرائية غرناطة أنها تضم جثمانى فرديناند وايزابلا • قاهرى غرناطة وقد سلمت لهما المدينة وانتهى بذلك عهد العرب فى أسبانيا • وقبرهما مصنوع من المرمر الجميل على طراز عصر النهضة الايطالى •

وتحوى الكتدرائية الكثير من التحف من تماثيل ولوحات صنع أعظم الفنانين كما تحوى الكنوز الثمينة كغيرها من كنائس أسبانيا •

بالقرب من الكتدرائية توجد « السوق » فى حى قديم من الأحياء التى تخترقها الأزقة الضيقة ، وكانت هذه السوق تعج بالبائعين والمشترين أيام العرب ورغم تخربه واندثار أكثر معالمه لا يزال قائما به بعض الأعمدة الرخامية الجميلة الرشيقة ، تعلوها العقود على شكل حدوة الفرس وهو الطراز العربى وقتذاك ، ويدل ما بقى على قلته على عظمة ما كانت عليه السوق •

وتوجد بغرناطة جامعة تأسست منذ سنة ١٥٣١ وبالجامعة مكتبة كبيرة تضم عشرات الآلاف من الكتب العلمية القيمة•

الجيتانا — أو غجر غرناطة

لا يسع من يزور غرناطة أن يغادرها — وقد زار قصر الحمراء وجنة الريف والكتدرائية — قبل أن يحضر حفلة من حفلات الجيتانا الراقصة ، وهؤلاء هم غجر تلك المنطقة

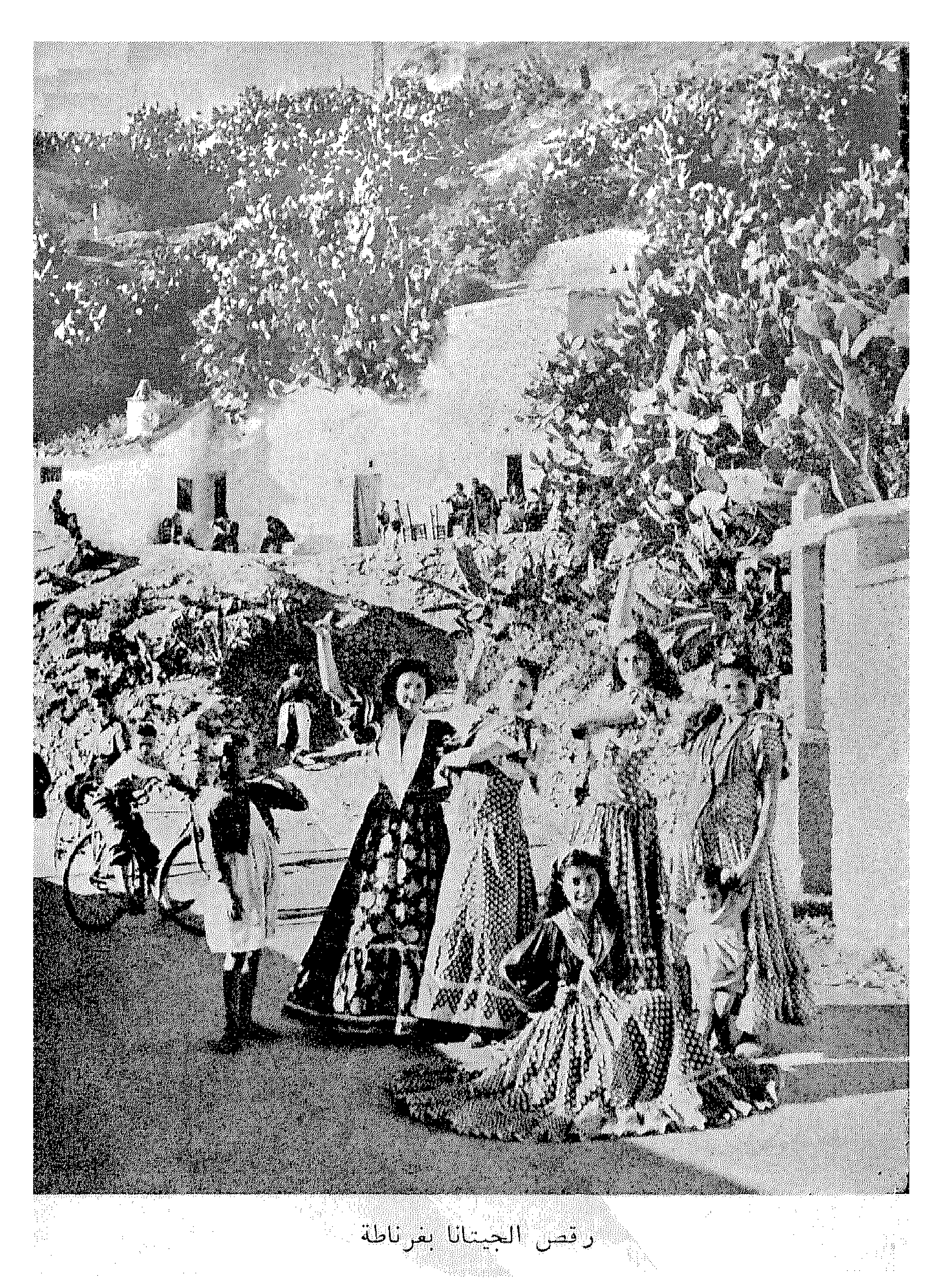
ويسـكنون الكهوف المنحوتة فى الجبل ويتخـذون منها مساكنهم • وترتب عادة ادارة الفندق ما يلزم لمشاهدة حفلة أو أكثر ليرى السـائح الرقص البوهيمى تقـدمه سيدات وشابات وشبان فى زيهم الوطنى الزاهى الألوان على نغمات الموسيقى الوطنية يعزفها بعضهم • ويرى الراقصون والراقصات يرقصون فرادى وجماعات •

وفى أيدى السيدات الصاجات ، ويصاحب الموسـيقى الغناء والتوقيع باليد تصفيقا كجزء من الموسيقى لا يتجزأ • وفى أثناء الحفلة وفى فترات قصيرة للراحة يقدم النبيذ لجميع الحاضرين ، ويتولى المصاحب للسائحين دفع المنحة اللازمة لأهل البيت أو أهل الكهف على ما قدموه من فنهم ومن نبيذهم ثم يتقاضى من كل نصيبه •

* * *

الآن وقد أتممنا زيارة غرناطة وزرنا قصر الحمراء وجنة الريف والكتدرائية وشاهدنا الرقص الوطنى لنرحـل الى مدريد العاصمة للراحة ولزيارة بعض معالمها مرة أخرى اذ أن « متحف البرادو » جدير بأن نعود اليه لنستمتع بما حواه من لوحات خالدة آية فى الجمـال ومعجزة من معجزات الفن الرفيع •

بعد أن نستريح — أيها القارىء العزيز — فى مدريد بضعة أيام نزور أثناءها متحف البرادو وبعض المعالم الأخرى



رقص الجيتانا بغرناطة

ونقوم برحلات قصيرة الى القرى المجاورة لمدريد — فلنذهب بعدئذ الى برشلونه ، وأوصى بأن تكون الرحلة بالطائرة فاذا لم يتيسر ذلك لسبب ما فبالقطار طبعا .

برشلونة Barcelona

من أهم بلاد أسبانيا وأعظم مدنها العامرة بلغ عدد سكانها الآن أكثر من مليونى نفس وتقع على البحر الأبيض المتوسط وبين نهرى بسوس Besos ولوبريجات Leobregat ويكتنفها جبل تيبيدادو Tibidado ومونجويك Montjiuck اللذان تمتد سفوحهما بتدرج الى شاطىء البحر ، وطقس برشلونه معتدل جدا ، اذ لا تتجاوز درجة الحرارة ثلاثين سنتيجرادا صيفا ولا تهبط شتاء دون الثمانية ، مما استهوى السياح الذين يهرعون اليها طوال أيام السنة وفى مختلف الفصول بقصد السياحة أو التجارة ، اذ أن برشلونه من أهم مدن أسبانيا التجارية ، لذا تجدها دائما مكتظة بالزوار ويصعب الحصول على حجرات بفنادقها العديدة ، من أجل هذا يحسن بل يجب حجز الأماكن سلفا والتأكد من ذلك قبل السفر اليها .

تكاد هـذه المدينة أن تكون فريدة فى نوعها بين مدن أسبانيا جميعا ، ويعد الجزء الحديث منها فى صف أعظم مدن العالم المتحضر ، وبها الكثير من الشوارع عظيمة الاتساع ، ويمتد بعضها عدة كيلو مترات ، وتقوم على جانبيها القصور

المنيفة والعمارات الشامخة ، ويقطعها الترام طولا وعرضا ، عدا سيارات النقل المشترك والسيارات العادية ، أما انارة المدينة فجيدة جدا الى درجة تثير حسد أعظم عواصم العالم المتمدن ، اذ أن ببعض شوارعها الكبيرة ستة صفوف من المصابيح الكهربية ، ومصابيح غاز الاستصباح ، تجعل الليل منيرا كالنهار وتغرى الأسبانيين بالتنزه فى الشوارع الى ساعة متأخرة من الليل ، بل الجزء الأكبر من الليل ، وتستمد المدينة التيار الكهربى من محطة كبيرة على بعد نحو ٢٠٠ كيلو متر حيث توجد مساقط شلالات ترومب على نهر أبرة •

وتكثر بالمدينة دور التمثيل والسينما بدرجة لافتة ، كما أن بها الميادين الفسيحة والمتنزهات الكبيرة العديدة جميلة التنسيق المزينة بالتماثيل لمختلف مشهورى الفنانين ، بقصد تخليد ذكرى عظماء الرجال وتجميل المدينة •

وأهل برشلونة فى غاية الوداعة والمجاملة والنشاط ، اذ أن اقليمهم مشهور بالصناعة والتجارة ، ويوجد بجانب برشلونة الحديثة الأنيقة الجزء الباقى من البلدة القديمة وبه بعض الأبنية التى لا تزال قائمة على جانبى الطرق الضيقة ، وقد كان هذا الجزء فيما مضى محاطا بأسوار تهدمت واندثرت ، وهكذا تجمع برشلونة بين القديم والحديث •

أقامت أسبانيا سنة ١٩٢٩ فى برشلونة معرضا دوليا ، وأنشأت لهذا الغرض نافورات مياه عظيمة ، وأعدت أجهزة

ضخمة هائلة لأنوار الزينة التى أطلقتها خلال المعرض ، فكانت أعجوبة العالم حينئذ ، وقد احتفظت برشلونة بهذه المنشآت وأبقت عليها ، ولا تزال هذه الأنوار العظيمة تطلق فتنير الأفق ، وذلك فى كل يوم أحد من أول كل شهر من مايو الى أكتوبر من كل عام .

كذلك أنشئت بمناسبة معرض سنة ١٩٢٩ مدينة أسبانية نموذجية على طراز المدن القديمة حوت كل شىء من مساكن ومتاجر ومخابز ومصانع زجاج حيث ترى بها اليوم صناع الزجاج ينفخونه بقصبات فى أفواههم كما كانت الحال من قرون عديدة ، وترى أفرانهم البدائية ثم تستطيع أن تشترى بدراهم معدودة « زهرية » أو نحو ذلك مما يصنع أمامك فى دقائق من منتجات بسيطة . ومن أهم متاحف برشلونة متحف الفن الكتالونى Museo de Arte de Catalonia الموجود الآن فى أحد القصور التى شيدت بمناسبة ؛ معرض سنة ١٩٢٩ وبهذا المتحف مجموعة نادرة من الفن الكتالونى وتحف من العصر الرومانى ولوحات من الكنائس من العصر القوطى ، وكذلك تحف متنوعة من العصر الحديث ، وأهمها مجموعة من عمل الفنان فورتينى Fortuny ، ومنهـا درة آثاره « الفيـكاريا La Vicaria » التى يعتبرها سـالفادور دالى Salvador Dali أعظم لوحة مائية فى العالم .

كما يوجـد فى متنزه المونجـويك Monjuick Park متحف العاديات ومتحف الموسـيقى ومتحف المسكوكات القديمة .

« والاستاديوم » من أعظم وأكبر أمثاله فى أوروبا . فهو يتسع لأكثر من ٦٠٫٠٠٠ متفرج كما أن ميدان مصارعة الثيران فخم يتسع لأكثر من عشرين ألف متفرج .

وتكاد برشلونة أن تنفرد بطابعها الخاص دون مدن أسبانيا الأخرى فى أكثر من ناحية ، فأهلها أكثر نشاطا من أهل الجنوب ، وشعارهم العمل والانتاج ، وأحياؤها عدا الجزء الصغير القديم أحياء تضارع أعظم أحياء عواصم أوروبا من حيث اتساع شوارعها وما يقوم على جانبيها من مبان شامخة ومساكن أنيقة ، وما يقع بينها من متنزهات عظيمة الاتساع جميلة التنسيق .

ويجدر بالزائر أن يلجأ الى احدى شركات السياحة ليطوف باحدى سياراتها المريحة بأنحاء برشلونة فى جولة من جولات الصباح وأخرى فى المساء ، اذ كل جولة تختلف تماما عن الأخرى ، كما أن مكاتب السياحة هذه ترتب أيضا رحلات تستغرق اليوم كله الى ضواحى برشلونة ، ومن أهمها الرحلة الى جبل مونت سرات Montserrat على مسافة نحو ٦٥ كيلو متر من برشلونة ، والطريق جيد جدا ، ولكنه كثير المنحنيات حاد الارتفاع ، ويرى المسافر حين اجتيازه ما تكاد تنفرد به تلك المنطقة من قمم الجبال التى تكاد تشبه أعمدة ضخمة قائمة تطل على الوادى برؤوسها الشامخة وتتجاور كأسنان المنشار ، ويجرى ماء النهر فى بطن الوادى وتقوم

أشجار الصنوبر بسفح الجبال فتؤلف لوحة شعرية يبتهج بها الفنان ويرتاح لرؤيتها ويقول : سبحانك اللهم لقد خلقت فأبدعت وأردت فكان هذا الجمال ، وأخرجت الشجر من بين ثنايا الصخر الصلد ، وجعلت من الماء كل شيء حيا ، جلت قدرتك اللهم لك الشكر والحمد ٠

يمر المسافر بكثير من القرى الواقعة على ضفتى نهر لوبرجات Leobregat ، وقد تناثرت تزين الوادى وتنشر العمران ٠

أهم ما يوجد فى مونتسرات هو الدير الذى يشرف على المنطقة من عل ويكاد يظنه الرائى من بعد كأنه قطعة من الطبيعة ، وأنه جزء من تلك القمم العالية ولم يكن من صنع الانسان ٠

أنشيء هذا الدير فى القرن التاسع ملجأ للنساك المتعبدين ثم اتسعت رقعته وأشرف عليه منذ القرن الخامس عشر الرهبان البندكتينيون واستمروا الى اليوم ، وقد ذاعت شهرة الدير وشهرة العذراء التى به خلال القرن السادس عشر ذيوعا كثيرا حتى بلغ عدد من يحجون اليه كل عام مآت الآلاف من الناس ٠ وقدم (دون جوان) الى العذراء بهذا الدير جميع الأسلاب النفيسة التى ظفر بها فى موقعة ليبانتو Lepanto التى انتصر فيها على الأتراك وردهم عن أوروبا ، كما حج الى رحاب العذراء الملك شارل الخامس أكثر من مرة ملتمسا البركة ٠

من جبل مونتسرات يمكن الصعود بالمصعد السلكى الى مرتفعات شامخة حيث يوجد فى بعضها صوامع للمتعبدين ، وحيث يطل الرائى من هذه المرتفعات الكبيرة على الوادى السحيق •

وبالدير علاوة على الكنوز الثمينة التى لا تكاد تخلو منها كنيسة أو كتدرائية مكتبة نفيسة تحوى نحو ١٥٠ر٠٠٠ كتاب جمعها ولا يزال يجمعها القسس من جميع أنحاء العالم عن موسيقى الكنيسة وعن التصوف وأحدث التراجم للانجيل وغير ذلك •

يمكن العودة آخر اليوم الى برشلونة ، ويوجد فى مونت سرات فنادق لا بأس بها ، كما أن الدير يضيف من يرغب تمضية ليلة ، ولو أن وسائل الراحة ليست مثالية ولا يتقاضى الدير أجرا ، وعادة يمنح الضيف منحة للدير يصرفها على الفقراء •

بلنسية Valancia

بلنسية من أهم مدن أسبانيا العامرة ويبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة وتجمع بين المدنية الحديثة وبين القديمة، اذ لا تزال آثار المدينة اليونانية وآثار العرب باقية تدل على ما مر ببلنسية من أحداث عظام •

ويرى الزائر فى شوارع بلنسية العظيمة وميادينها

ومتنزهاتها الفسيحة والمبانى الضخمة الأنيقة جميع مظاهر التقدم والرقى ، ويحيا فى طقس بديع منعش معتدل طوال السنة تقريبا مما يجعل بلنسية قبلة الزوار فى جميع الفصول لاعتدال جوها وصفاء سمائها وجمال ريفها الزاخر بأزهار أشجار البرتقال كثير الانتشار فيها والذى اشتهرت به بلنسية شهرة عالمية وسيطرت بجودة برتقالها على أسواق أوروبا ، ولقربها من تلك الأسواق .

كما أن زراعة الرز واسعة الانتشار بتلك المنطقة وتعد بلنسية من أهم مناطق أسبانيا الزراعية وأغناها .

قصدت بلنسية بالطائرة لأزور احدى مزارع البرتقال الشهيرة وتبلغ مساحتها ١٦٠ فدانا كلها مغروسة بأشجار البرتقال ويملكها المسيو كازانوفا وهو رجل لطيف مهذب يعيش فى وسط مزرعته المعتنى بها كل العناية وله بيت طيب المظهر ، وأمامه بركة للسباحة وجزء يبلغ نحو نصف فدان مخصص للزهور ، وصادف أن كان يزوره عند ما بلغنا المزرعة بعض المشتغلين بزراعة البرتقال من الفرنسيين المستوطنين شمال آفريقيا فتعارفنا جميعا وبقينا ساعة أو أكثر نطوف بالمزرعة ونتبادل الحديث فى مختلف شؤون مزارع البرتقال وتسويقه قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وتبين من الحديث أن محصول البرتقال يباع غالبا كما هو الحال عندنا بمصر صفقة وبالمساومة والثمر على الشجر ويستعين

المالك أحيانا بخبراء مهمتهم معاينة الأشجار فى كل قسم من أقسام المزرعة ، اذ المزارع مقسمة الى أجزاء يبلغ الواحد منها بضعة أفدنة ويقدمون الى المالك تقريرا بتقديرهم ما على الشجر من ثمار (بالوزن) وقيل لنا أن متوسط محصول الشجرة الجيدة التى يزيد عمرها على ١٥ سنة يبلغ من ٨٠ الى ١٣٠ كيلو ، ولاحظت أن هذه المزرعة وقد طفت بجزء كبير منها معنى بها كل العناية ويعطى لها سماد الاصطبلات والسماد الكيموى بكميات مناسبة جدا وأنها رغم ذلك لا تفوق فى أثمارها أو نضارة أشجارها مزارعنا الممتازة . التى يعنى بها كل العناية أيضا . وكنت أتوقع أن أرى بساتين البرتقال فى بلنسية بحالة ليس لها نظير فى بلادنا فوجدت أن بعض مزارعنا الممتازة تضارع ولا ريب المزرعة التى زرتها .

سمعت من أحد الفرنسيين أنهم يعملون على التخلص من الأشجار كبيرة الثمار والاستعاضة عنها بأشجار أخرى ثمارها متوسطة الحجم اذ أنهم يقابلون متاعب وصعوبات لتسويق الثمار كبيرة الحجم . وبما أن الثمار تباع بالصندوق أو بالوزن فان ثمن الصندوق من الثمار الكبيرة يقل عن مثيله من ثمار متوسطة الحجم ، كذا يقل الثمن بالوزن للثمار الكبيرة عنه للثمار الصغيرة أو متوسطة الحجم .

عدنا بعد هذه الزيارة المفيدة الى الفندق الذى يملكه ويديره أحد أهالى بلنسية وبه ١٨٥ حجرة لكل واحدة منها

حمام خاص وليست اللوكاندة فاخرة الأثاث ولكنها نظيفة ورخيصة جدا اذ أجرة الحجرة بالقطار نحو نصف جنيه فقط .

وبما أن بلنسية منطقة زراعة الرز فانها لذلك مشهورة بالطبق الوطنى (البايلا Pealla) ، وهو رز مطهى فى طاجن أو صينية ، ومعه الكثير من الأسماك المختلفة ولحم الطير ولحم الضأن أيضا ، ويقدم حارا وبكميات لا يستطيع النهم أن يأتى عليها لوفرة ما يقدم من الرز والسمك وأنواع اللحوم المختلفة .

وتوجد مطاعم بالريف على حافة مزارع الرز تقدم هذا اللون من الطعام لزوارها وقد اشتهرت به شهرة عالمية .

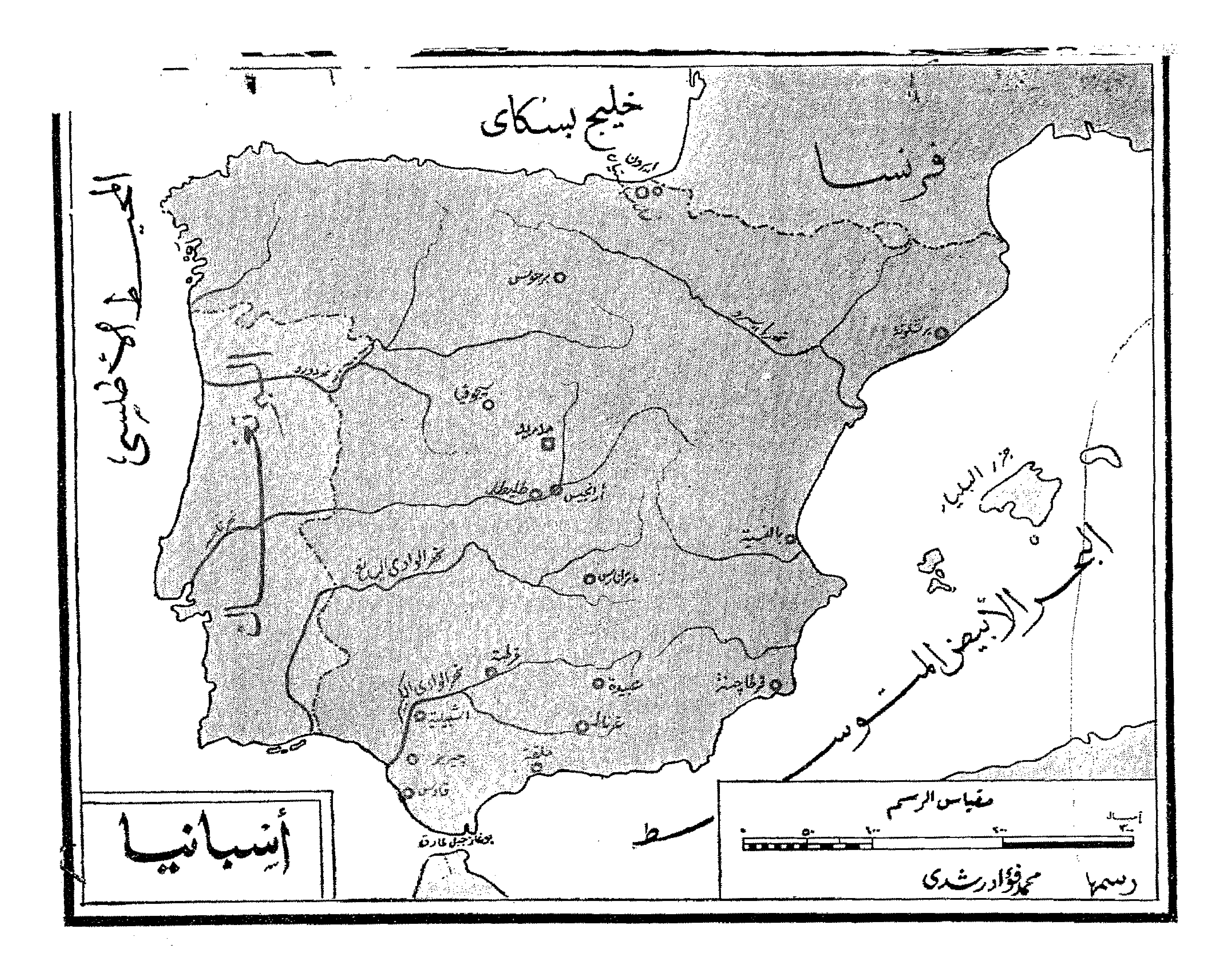
ويوجد فى بلنسية كما فى غيرها من مدن أسبانيا كتدرائية عظيمة وجملة كنائس أخرى ، وهى مشهورة أيضا بأعيادها الدينية الكثيرة العظيمة التى يحتفل بها سكانها ومن يحج اليها من الزوار فى فترة الأعياد ، وتقام بهذه المناسبات أسواق تروج فيهاالتجارة كما يقام فى يوليو من كل سنة مهرجان الزهور .

أما متحف الفن الجميل فبه مجموعة كبيرة قيمة من لوحات عظماء الفنانين من مختلف العصور الى عصرنا هذا .

خاتمة

هذه قصة أسبانيا وصورة للأندلس وقد شملت القصة موجزا لتاريخ اسبانيا ورسمت الصورة أهم مدن الأندلس وأبرز معالمه ، لا سيما ما خلفه العرب ، ويسرنى أن أقدم الى المواطنين من المصريين والناطقين بالضاد من الشعوب الشقيقة القصة والصورة ، آملا أن تمهد لهم سبيل التوسع فى دراسة تاريخ تلك البلاد التى للعرب فيها ذكريات وآثار خالدة ، والتى تذكر عالم اليوم بفضل العرب على أوروبا ، لعل الشعوب العربية تجدد ما اندثر ، وتنهض لتلحق بالركب .

نوفمبر سنة ١٩٥١



أسبانيا
خليج بسكاى
فرنسا
المحيط الأطلسى
البحر الأبيض المتوسط
جز البليار
برغوس
مدريد
طليطلة
بلنسية
قرطبة
غرناطة
أشبيلية
قادس
قرطاجنة
بوغاز جبل طارق
نهر الوادى الكبير
مقياس الرسم
أميال
٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
رسمها محمد فؤاد رشدى



شارع بالحى القديم باشبيليه

بمطبعة مصر شركة مساهمة مصرية